تأملات في فلسفة الحياة

الإنسان في مرمى الزمن

الأستاذ الدكتور: محمد عبد العزيز ربيع

دروب ثقافية للنشر والتوزيع
Dorub Thakafya For Publishing & Distribution

الأستاذ الدكتور: محمد عبد العزيز ربيع ◆ الإنسان في مرمى الزمن



تأمُّلَاتٌ فِي فَلسَفةِ الحَـيَاة

الإنسانُ
فِي مَـرْمَى الـزَّمَن



الأستاذ الدكتور

محمد عبد العزيز ربيع

المحتويات

1

نظرة إلى الزمن

نظرت إلى السماء بعينٍ تتطلع نحو مستقبل واعد، رأيت النهار يسير ببُطء مُبتعداً عني، أمسكت بطرف ثوبه الملوّن بأشعة شمس توشك على الغروب، تعلقت بأهدابه كي لا أتخلف عن مسيرة الزمن، وأغرق في بحر الظلام الدامس.. فالظلام هو كل ما يتركه النهار خلفه حين يقرر الحِداد على اختفاء شمس هجرته لحضن بحر دافئ. جرّني النهار وسار في طريقه متباطئاً، شعرت بأنني أثقل عليه كثيراً، لكنه لم يترك لي خياراً آخرَ، فالظلام ليس خياراً، إنه نفق مُعتِم يحاصر كلَّ من يبحث عن النور والحقيقة، تماماً كما يحاصر اليأس الروح المتمردة على الجهل والظلم والفقر.

نظرت أمامي، فإذا بالزمن يسير بثبات مُبتسماً مُطمْئناً من دون أن تبدو على وجهه علامات تعب أو إرهاق أو ملل؛ فالزمن يزداد شباباً وحيوية كلما تسارعت خُطواته وغابت عن ناظره مخلَّفات الأقدمين. كان الزمن يتوقف بين الحين والآخر لحظات، يلتفت خلفه ليقيس مدى ما حققه من تقدم على الطريق إلى هدف بعيد لا يُرى، هدف يسكن في غابةِ نجوم كثيفة لا يغيب النور عنها. لكن الزمن كلما ظن أنه اقترب من الهدف المنشود كان يكتشف أن الهدف الذي تخيله لم يكن سوى شاهد يقف على جانب طريق طويل بلا نهاية، فكلُّ زمن، وكل جيل يرسم لنفسه هدفاً خاصاً، ما يكاد يُلامسه حتى يكون الجيل التالي قد تجاوزه في أحلامه وأفعاله وأفكاره وتطلعاته، ما يجعل هدفَ الجيل السابق يتحول إلى مجردِ شاهد جديد يقف على طريق لا ينتهي.

ومع أن الزمن يتباطأ في سَيره أحياناً، ويتسارع أحياناً أخرى، فإنه لا يتوقف عن المسير أبداً. لذلك لا تجد الأجيال المتعاقبةُ خياراً أمامها سِوى أن تتعلق بأهداب الزمن، وأن تسايره علَّها تصل إلى غاياتها المنشودة يوماً ما. وفيما تسير بعض الشعوب خلف الزمن متعبة بسبب عبء ما تحمله على كتفيها من تراث مثقل بالمحظورات، والعادات والتقاليد التي تجاوزها الزمن، تضطر شعوبٌ أخرى أن تركض خلفَ الزمن لاهثة، ما يجعل الشواهد على الطريق تتوالد يوماً بعد يوم، فيما يبدو الطريق أمام الأجيال المتعاقبة غايةً لا تُطال، تسكن خلفَ سلسلةِ جبال شاهقة يتعاقب النهار والظلام عليها بلا توقف.

وقفت أمام شاهد قديم على جانب طريق متعرّج أمام هضبة جبلية، يحُدها من الغرب بحر جميل هادئ، ومن الشرق صحراء ممتدة قاحلة، حاولت أن ألقي نظرة أخيرة على مخلَّفات أجيال سبقتنا قبل أن تختفي آثارها عن الأنظار، فإذا بي أشاهد الأهلَ والأصدقاء يأخُذون غفوة على شاطئ ذلك البحر الذي لا تعرف مياهُه سوى الجزر. كانت مياه البحر تتبخر ببطء ولكن بشكل متواصل، فكل الينابيع التي كانت تغذيه، وتعطف عليه لحِقَب زمنية بلا عدد كانت.. قد توقفت عن الجريان منذ زمن. لكن الأهل لم يدركوا حال البحر وما جرى له على مدى عقودٍ وقرون خلت، ما جعلهم يستغرقون في نومهم وأحلامهم على أملِ أن يفيقوا مع الفجر، وقد جاء المدُّ كي ينقذهم من الجفاف!. لكن الظلام نزل وغمرهم وغمر البحر بعباءته السوداء، وتمادى حتى لم يعد بالإمكان رؤية أي شيء. طال الليل وطال النوم، ولم يأتِ النور، وحين فاق البعض من نومهم بعد أجيال وأجيال وجدُوا أن الفجر هرب إلى الشاطئ الآخر، وحمَل معه الحلم والأمل والمستقبل، وتركهم يعيشون على مخلفات زمن ينظر إلى الماضي بوصفه العصرَ الذهبي الذي سيعود.

حزنت على أهلي ووطني كثيراً، تمنيت **أن أكون** قمراً يضيء لهم الطريق، ويُبدد الظلام من حولهم، تمنيت **أن أكون** شمساً تُجدد جريان الدم في عروقهم، كما تُجدد الحياة لزهرة الزنبق بعد سبات شتاء طويل، تمنيت **أن أكون** غيثاً يغذي البحر، ويعيد له حيويته وقدرته على المدّ من جديد، حتى يستعيدوا بعض الأمل. لكنني تذكرت أن القمر يُغريهم على السهر والسمَر واللهو، والشمس تبعث فيهم الإحساس بالحاجة لقَيلولة طويلة قبل أن يستيقظوا ثانية، لتناول وليمة هناء، أو عزاء ساخنة، وأنَّ موج البحر يحملهم فوق أجنحته إلى الضياع والموت بعد أنْ نسُوا فنَّ السباحة والغوص في البحر. لذلك قررت **أن أكون** مجرد فكرة تصرخ في وجوههم، علها تُوقظ عقولهم وضمائرهم، مجرد قصيدة تُلهب عواطفهم، وتستثير حماسهم وكرامتهم... لكنني اكتشفت أن كل فكرة جديدة تُخيفهم وتُرعب قلوبهم الضَّعيفة، وتدفعهم إلى الارتماء في أحضان ماضٍ لا يعرف غير الفقر والجهل والظلام، والعيش مع خيالاته طلباً لراحة البال والاطمئنان والأمان، فكل نهار يأتي يحمل معه ضوءاً يخطف حلاوة الأحلام، ويجعل القلق سيد الأيام.

وهنا **وجدت نفسي** أمام خيارين لا ثالثَ لهما**: إما الاستلقاء** إلى جانب الأهل والأصدقاء على شاطئ بحر الوطن الهادئ، ونسيان الزمن والأمل والمستقبل، **أو مجاراة** الزمن في شبابه وحيويته المتجددة لحظة بعد لحظة، والعيش مع النهار بعِلمه وشقائه وقلقه بعيداً عن الظلام. تعلقت بأهداب النهار، ابتعدت عن الأهل والوطن، لكنني لم أستطع نسيانهم**!** أو نسيان ذكرياتي معهم وبينهم، ولا طرْدَ سِحر أحلامهم من مخيلتي، تلك الأحلام التي أدركت منذ ظهور براعم الوعي الأولى أنها مجرد أوهام لن تتحقق. نعم، لقد اخترت الغربة والاغتراب بعيداً عن الوطن والأهل والذكريات على أمل أن أعودَ إليهم ثانية بفكرة جديدة

وتجربة مثيرة علَّها توقظهم من سُباتهم. لكنني حين وصلت إلى أرض الوطن بعد عقود، وجدت نفسي غريباً في أرض ليست غريبة عني، وبين أهلٍ اغتربوا عن ثقافتهم وتاريخهم والعالم المحيط بهم، وهجَروا الزمن الذي عرفناه معاً، وهربوا إلى أحضان زمن مضى، وأمجادٍ غابرة، تخيلوها واقعاً يتحقق أمام أعينهم على مراحل. أيقنتُ عندها أن قطار الأمل لم يصلْ بعدُ، وأن الطريق أمامه لا يزال طويلاً وكثيرَ التعرجات، وأن الوعي قد لا يصحو من سباته قبل أن يَشيخ الزمن!!

وخوفاً من أن يطول الانتظار، ويسرق الزمن منى ما تبقى لي من سنوات العمر، قررت أن أغرس الأمل في عيون طلابي وأحفادي، وأغريهم بالسفر معي في الزمان بعيداً عن سجن المكان، نعيد تشكيل واقع حياتنا معاً، نصنع من أفكارنا وأحلامنا نهاراً جميلاً نتعلق بأهدابه، ونجري معه خلف زمن يعشق الفجر والنور.. قررت أن نأخذ من زهرة عبَّاد الشمس قدوة لنا، فزهرة عباد الشمس تغفو قليلاً حين يحُل الظلام، وتصحو مع قدوم الفجر كلِّ فجر، وتتبع الشمس حيث سارت، تتجه شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً حتى ترى الشمس تأخذ غفوة صغيرة في حضن بحر دافئ وتحلم، فتحلم معها بفجر جديد، يكون أكثر جمالاً وعطاء من السابق. تحلم وتنتظر شروق شمس يوم جديد يُجدد حيويتها وينعش روحها قبل أن يأتي السنجاب ليتسلق فوقها، يقطف أزهارها، يأكل نتاجها من الحبوب قبل أن تنضج تماماً، ويتركها تتحسر على شباب كان في الأمس القريب يتباهى بقربه من الشمس، ويعشق روح الشمس كما يعشق الحياة في أحضانها. لكن السنجاب، وإن تتطاول على زهرة عَبَّاد الشمس، واستغل وداعتها، لا يستطيع أن يصادر كل ما عليها من حبوب، إذ يتساقط بعض الحبوب على الأرض، يغفو في حِضنها حتى يحُلَّ الربيع، وعندها يصحو من غفوته، كي يعيد دورة الحياة من جديد... حياة تتجدد مع كل فجر يأتي، ومع كل شمس تغفو، ومع كل ربيع وصيف وخريف وشتاء لا يتأخر عن موعده، فلكل فصل من تلك الفصول رونقُهُ وأجواؤُه وأحلامُه وآماله العَريضة، وفوق ذلك كله، له مستقبلٌ مميز لن يُخلف وعدَه أبداً.

2

الإنسان والبُعد الكوني

يتحرك كلُّ إنسان يعيش في هذا العصر ضمن ثلاثِ حلقات متداخلة ومترابطة مع بعضها ، وذلك بغضّ النظر عن خلفيته الثقافية ومكان وجوده وطبيعة انتماءاته العَقَدية والاجتماعية نوعية عمله. ويأتي هذا التحرك وما يترتب عليه عادة من تبعات غالباً من دون وعي، مما يجعل الإنسان يبدو مسيَّراً وليس مُخيَّراً، تتحكم في حركته ومواقفه قِوى خارجة عن إرادته.

الحلقة الأولى هي حلقة الانتماء الشخصية التي يُعبر كل شخص عنها بكلمة "أنا".

والثانية هي حلقة الانتماء الجماعية التي يعبر عنها بكلمة "نحن".

أما **حلقة** الانتماء الثالثة فهي الحلقة الكونية التي يعبر عنها بكلمة "إنسان".

ومع أن حلقة الانتماء الأولى هي الأقوى والأَولى بالعناية، إلا أن إنسانية الإنسان لا تكتمل إلا حين تصبح الحلقة الثالثة هي الحلقة الأمّ، ذلك لأن هذه الحلقة تشكل الإطار الذي يمنح الحلقة الأولى والثانية أسبابَ وجودها ومعنى وجودِها وشرعيته. وهذا يعني أن الإنسان الذي يهتم بمصالحه الشخصية فقط، ويقتصر تعريفه على نفسه على كلمة "أنا"، لا يستطيع أن يفهم مصالح الجماعة ويُراعيها، كما أنه لا يستطيع أن يفهم معنى الإنسانية، ويهتم بما يعنيها من قضايا وهمومٍ ومصالحَ كونية مشتركة. وهذا من شأنه أن يتسبب في سعي ذلك الإنسان لتحقيق مصالحه الذاتية على حسابِ مصالح الجماعة والبشرية جمعاء.

إنَّ الإنسان الذي يَهتم بمصالح الجماعة التي ينـتمي إليها، يهتم أيضاً بمصالحه الشخصية بوصفه جزءاً من تلك الجماعة. لكن اهـتمام الإنسان بمصالحه ومصالح جماعته دون غيرها من جماعاتٍ إنسانية أخرى يقوده في معظم الحالات والأحيان إلى التفرقة ضد الجماعات التي لا ينتمي إليها، وإهمال مصالح الإنسانية، وما تستحقه تلك المصالح من أهمية. الأمر الذي يتسبب في قيام الإنسان المعنيّ بوعي، أو من دون وعي، بالعمل على تحقيق مصالحه ومصالح جماعته على حساب مصالح البشرية. ومع إهمال مصالح البشرية يتم أيضاً إهمال البيئة الطبيعية، وما تحتاجه من عناية، مما يَحرم جميع الناس من التمتع بحياتهم

كما يجب. لذلك ليس بإمكان إنسان أن يُحس بآلام مختلف شعوب الأرض ومعاناة البيئة، وطموحات الأجيال الفتية إلا حين يصل وعيُه إلى درجة الإيمان بأنه جزء من إنسانية لها مصالحُ مشتركة وبيئة طبيعية واحدة، تعود ملكيتها إلى كل المخلوقات من بشر وحيوانات ونباتات وحشرات تعيش في هذا الكون.

إن الإنسان الذي يرى أن حلقة الانتماء إلى الإنسانية هي الحلقة الأمُّ هو الإنسان الوحيد القادر على التفكير بعلمية وعقلانية، واتخاذ مواقف أخلاقية من الحياة والوقت والعمل والبيئة وغيره من البشر. إذ لا يمكن لشخص أن يكون إنساناً بالمعنى الأخلاقي والعِلمي والرُّوحاني إلا إذا شعر بأن الإنسانية تُشكل جوهرَ الضمير الذي لا بد أن يحكم مواقفه من الذات وغيره من البشر، ويوجه علاقاته وتحركاته ضمن الحلقتين الأولى والثانية.

كلما تعثرت خُطى البشرية على طريق الحضارة بشقيها المادي والروحي وبُعدها الإنساني، كلما تراجع وعي الإنسان، وزاد التزامه بتقاليد ومصالح الحلقة الأولى. وهذا من شأنه أن يجعل الإنسان يتحرك تبعاً لغرائزَ شبهِ حيوانية تُضعف قدرته على التفكير بحرية والتصرف بعقلانية. في المقابل، كلما تسارعت خطى البشرية على طريق الحضارة بشقيها المادي والروحي وبُعدها الإنساني، كلما تزايد وعي الإنسان بإنسانيته، وتعزز التزامه بمتطلبات الأخوة الإنسانية التي تتجاوز الغرائز الفردية والانتماءات الجماعية. أما الحلقة الثانية فهي حلقة انتقالية يستخدمها الإنسان حين تكون شمسُ الحضارة ساطعة كنقطة عبور تمكنه من تجاوز عتمات الحلقة الأولى والتمتع بأنوار الحلقة الثالثة. أما حين تغيب شمس الحضارة، فإن الإنسان يستخدم الحلقة الثانية مثل قناة يتسلل من خلالها إلى كهوف الحلقة الأولى المظلمة، حيث تتراجع القيم ويسود الجشع، ويخيم الجهل على ثقافة العصر.

إن انتماء إنسان إلى جماعة ثقافية أو قومية أو فكرية أو دينية أو طائفية، والارتباط بها بمصالحَ مشتركةٍ والتزامات متبادلة، وتقاليد وعادات وقيم ومعتقدات ذات أصل واحد يجعل الإنسانَ المعنيّ يُضحي بالكثير أو القليل من مصالحه الشخصية لمصلحة الجماعة التي ينتمي إليها، فيما يقوم بخدمة مصالح الجماعة غالباً على حساب مصالح الإنسانية.

من ناحية ثانية، إن ايمان إنسان بمفاهيمَ أيديولوجيةٍ معيّنة والالتزام بها، بقطع النظر عن طبيعتها ومراميها، يحرم الإنسان المعني من القدرة على التحرر من فِكر تلك الأيديولوجية وتقاليدها وطقوسها، مما يجعله إنساناً تابعاً لا يحظى باستقلالية في الرأي، ولا يتمتع بالحرية... إنسان يتقمص شخصية لا علاقة لها بطبيعته الإنسانية. ويعود السبب في ذلك إلى كون كل أيديولوجية تقوم على أفكار وحتميات تاريخية أو

دينية غير واقعية وغير علمية، تقودها إلى التعصب لفكرها، والتفرقة ضد غير المنتمين إليها من البشر. ومع أنني استخدمت هنا كلمة **"قومية"** وسأستخدم كلمة "عِرق" في الفقرة التالية، إلا أنني لا أؤمن بوجود أعراق أو أجناس بشرية لهم خصوصيات تجعلهم يشكلون قومياتٍ مختلفة، كما سنوضح في الجزء التالي.

الأيديولوجيات هي فلسفات شمولية ذاتُ أصول اجتماعية ثقافية (دينية)، أو اجتماعية سياسية (قومية عِرقية إثنية)، أو اجتماعية اقتصادية (ماركسية ورأسمالية) تم تحويلها إلى حركات سياسية تسعى لتغيير الواقع تبعاً لرؤيتها إلى تلك الأمور. ومع اختلاف مبادئ كل أيديولوجية ومواقفها عن غيرها من أيديولوجيات، وميل أهداف الأيديولوجيات إلى التناقض مع بعضها، إلا أن الإيمان بالأيديولوجيات يختصر إنسانية الإنسان، ويُقلص قدراته على العناية بكوكب الأرض الذي نعيش عليه، ويهدر جزءاً كبيراً من إمكانات البشرية جمعاء على الخلق والابتكار والإبداع، ويدفن الكثير من المواهب الإنسانية في القبور، كما أنه يحُول دون تحرير خيال الإنسان، كي يعيش إنسانيته في طمأنينة وسلام.

وفي ضوء ما تواجهه البشرية اليوم من تحديات تتجاوز كل الحدود السياسية والانتماءات الفئوية ومصالح الفرد والجماعة والدولة على السواء، فإن غياب الوعي الإنساني بإنسانية البشر جميعاً، ووحدتهم وترابطهم يجعل مصير البشرية معرَّضاً لأخطار مصيرية كبيرة. وعلى سبيل المثال، أصبح ارتفاعُ معدل درجات حرارة الأرض، والتقلبات المُناخية المفاجئة يهدد وجودَ الكثير من النباتات والحشرات والحيوانات والأشجار، وحتى البحار والبحيرات والأنهار التي تمدنا بأسباب البقاء، وهذه موارد طبيعية لا تستطيع البشرية أن تُجددها، أو تعيش من دونها. وهذا يعني أن استمرار النظم الاقتصادية الحالية على حالها من شأنه أن يُقلِّص قدرة الأرض على دعم الحياة الإنسانية والحيوانية، وتحسين مستويات المعيشة كما كان عليه الحال على مدى آلاف السنين الماضية، كما أن استمرار أنظمة الحُكم السياسية على حالها من شأنه أن يؤدي إلى تعميق العداوات وتنمية أسباب النِّزاع بين البشر.

في ضوء هذه الحقائق، كان على كلِّ الدول والمؤسسات المجتمعية ونُظم التعليم ومؤسسات الفكر أن تعمل معاً بشكل متناسق على تنمية وعي الإنسان بإنسانيته، وتذكيره دوماً بأهمية بيئته الطبيعية، وربط هذه وتلك بأسباب تمتع الإنسان بحياته، وتأمين مستقبل أبنائه وأحفاده. إذ فيما تشير كل الدلائل إلى أن مصير شعوب الأرض كافة يرتبط بمصير كوكب الأرض الذي نعيش عليه، يعتمد مصير كوكب الأرض اعتماداً مباشراً على ما يفعله كلُّ واحد منا أثناء تناوله وجبات الطعام اليومية، وأثناء مزاولة عمله المعتاد، وأثناء سيره في شوارع كل مكان يمرُّ عليه، وبناء على كل عمل فكري وعلمي وعملي يقوم به.

3

نظريات الخلق والتطور

إن وجودنا على كوكب الأرض لغزٌ محيّر لا يستطيع إنسان أن يحله بشكل مقنع، وأن يؤكده علمياً بشكل قاطع. لذلك هناك نظريتان رئيسيتان تحاولان حل هذا اللغز، تستحوذ كل واحدة منهما على شرعية يدعمها إيمانُ رُبما نصف البشر. وبينما تقول **الأولى:** إن الله هو الذي خلق جميع البشر، وخلق الأرضَ والسماء والنجوم، وكلَّ ما في الكون من حيوانات وأشجار وأسماك وأشياء أخرى، تقول النظرية **الثانية:** إن الإنسان جاء نتيجة لعملية تطور بيولوجية بدأت بكائنات بدائية وانتهت بالإنسان قبل مئات الآلاف من السنين. وفيما تعتمد الأولى في تفسيرها لعمليةِ الخلق على أديان مختلفة، تعتمد الثانية على ما جاء به تشارلز داروين من أبحاث علمية تقول إن البقاء للأقوى أو الأصلح.

إن من يؤمن بنظرية الخلق الإلهي، يؤمن أيضاً بأن الله خلق البشر كافة من رجلٍ واحد وامرأةٍ واحدة، أي من آدم وحواء، ما يعني أن البشر جميعاً يتكونون من جنس واحد، أو عِرق واحد. أما مَن يؤمن بنظريةِ التطور الداروينية، فيؤمن أيضاً بأننا جميعاً من نسل حيوانٍ واحد يشبه القردة ظهَر في إفريقيا، ما جعلنا نبدأ رحلتنا على هذه الأرض من قلب القارة السوداء. وهذا يعني أنه لا يُوجد بيننا في حقيقة الأمر أجناس أو أعراق متباينة، فهذه أمور اخترعها بعضُ الرجال والنساء في قديم الزمان لتزوير الحقائق، وتزييف وعي البُسطاء من الناس، والسيطرة عليهم والقيام باستغلالهم عبر كل العصور، خاصة الحديثة منها. ولقد جاءت التشكيلات القبلية في عهود الجاهلية التي لم تعرف سوى العِداء والسَّبْي والنهب والسلب، ومن بعدها الأيديولوجيات المؤسسة على الدين والقومية والطائفة لتكرس مفاهيمَ العِرق والجنس والأنساب، ما جعلها تتسبب في قتل بلايين البشر على مدى عصور بلا عدد. وفي الواقع، حين نتكلم عن الإنسان من منظور جمعي بشري نقول تلقائياً **"الجنس البشري"**، ما يعني أننا نعترف من دون وعيٍ بأننا جنسٌ واحد، لا أجناس.

قد يقول البعض إن هناك شعوباً سوداء، وأخرى بيضاء، وثالثة صفراء، ولذا ليس بالإمكان أن يكون البِيض والسُّود وأغلب الآسيويين من عرق واحد. لكن اللون لا ينفي وحدانية الأصل، لأن اللون هو نتاجُ البيئة الطبيعية وأشعة الشمس بالذات، وبالتالي لا يعود إلى بداية الخَلق أو منشأ التطور. إن الإنسان الذي

بدأ حياته في مناطق إفريقيا القريبة من خط الاستواء وبقي فيها، لم يكن باستطاعته أن يتحاشى أشعة الشمس لأكثر من ساعتين أو ثلاثٍ في النهار. في المقابل، لم يكن بإمكان الإنسان الذي بدأ حياته في مناطقَ باردة، مثل شمال أوروبا وبقي فيها أن يتعرض لأشعة الشمس لأكثر من ساعتين أو ثلاث في النهار في المعدَّل؛ لأن الشمس تكاد لا تغيب عن المناطق الأولى، وبالكاد تُشرق في الثانية. لهذا تسبّبت أشعة الشمس والزمن الذي يقاس بمئات الآلاف من السنين في تحوُّلَ لون الأول إلى السواد، وتحوُّل لون الثاني إلى البياض، وتطوير كرموزومات تعيد إنتاج ذاتها، وتجعل نسل الأول يختلف من حيث اللونُ عن نسل الثاني. أما الإنسان الذي بدأ حياته في منطقة معتدلة الطقس مثل حوض البحر الأبيض المتوسط وبقي فيها، فإن لونه أصبح قَمْحِياً، يقترب أحياناً من الأسود، وأحياناً أخرى من الأبيض، لكنه لا ينتمي لأيٍّ منهما.

إن على مَن يشك في هذه النظرية أن يتخيل لون شخص أوروبي أبيض تعرَّض لأشعةِ الشمس بضعة أيام على شاطئ بحر دافِئ، وأن ينظر إلى لون إنسان قمحي اضطرَّ بسبب مرض إلى الانزواء عن عين الشمس في بيته لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع. إذ فيما يتحول لونُ بشرة الأول غالباً إلى لون قمحي داكن شبيهٍ بلون سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط، يتحول لون بشرة الثاني إلى لون شاحب البياض يميل إلى الاصفرار الذي يغلب على سكان آسيا. حتى الحيوانات التي تستوطن مناطقَ مختلفة من العالم تختلف ألوانها بين منطقة مُناخية وأخرى، فالدب مثلاً يتراوح لونه من الأبيض الناصع في المناطق الباردة إلى الأسود الداكن في أماكن أخرى بعيدة. وفيما **كانت هذه الفكرة تعبث في رأسي**، رأيت سِنجاباً في بيت صديق في ألمانيا، ذا لون أشقر لم أرَ سِنجاباً بلونه من قبل، مع العلم بأن حديقة بيتنا في مدينة واشنطن لا تخلو من السناجب صيفاً أو شتاء. وكذلك هو الحال بالنسبة للقِطط والكلاب والأغنام والأبقار وغيرها من الحيوانات والطيور الأليفة، وغير الأليفة التي تعيش في البراري والغابات.

إن كل مَن ذهب إلى منطقة الخليج العربي في خمسينات القرن العشرين للعمل فيها، لاحظ أن لون بشرة أغلب الناس في السعودية والكويت وعُمَان والإمارات العربية كان يميل إلى السواد، وذلك بسبب تعرض الناس إلى أشعة الشمس ساعات طويلة كل يوم؛ كما لاحظ أيضاً أنه كان من الصعب رؤية شخص بَدِينٍ يعاني السمنة في تلك البلاد. لكن من يذهب اليوم إلى المنطقة نفسها فسوف يشاهد أن ألوان بشرة الناس وبُنيتهم الجسدية تغيرت كثيراً، وذلك بسبب تغير نمط المعيشة في تلك البلاد عامة. إذ في ضوء شيوع البيوت والسيارات المكيفة والأسواق التجارية المغطاة وقلة المشي، وقلة تعرض أغلب السكان لأشعة الشمس، فإن ألوان الكثير من الناس تحولت من القمحي الداكن إلى لون يقترب من البياض، كما تحولت نسبة عالية منهم من النَّحافة إلى السمنة المفرطة أحياناً.

من ناحية ثانية، كان لون بشرة اليابانيـين والصينيـين والكوريـين وغيرهم من شعوب آسيوية قبل عقود قليلة يميل إلى الاصفرار بوجه عام. لكن لون الجيل الثالث من عامة اليابانيين والصينيين والكوريين، خاصة من هاجر منهم إلى أمريكا وأوروبا قبل قرنٍ من الزمن، تحول إلى لون قريب من الأبيض، وذلك بسبب تغير المُناخ والطعام وطريقة الحياة، كما تسببت الإقامة لأجيال في دول الغرب في اختفاء بعض الملامح الصينية واليابانية والكورية التقليدية المميزة. وهذا يعني أن طبيعة المُـناخ والبيئة ومكان العمل وطبيعته، ونوعية الطعام، ونمط الحياة هي العوامل الرئيسية التي جعلت البشرَ يختلفون من حيث اللونُ والبنية الجسدية في الماضي البعيد، وجعلتهم يقـتربون من بعضهم بعضا في العصور الحديثة.

وفيما تشير المعلومات إلى أن معدل طول الياباني زاد نحو (5) سنتيمترات منذ منتصف القرن العشرين بسبب تحسُّن نوعية الطعام وتـنوعه، وارتفاع مستوى التعليم والرعاية الصحية، فإنه ما يزال سكان المناطق القطبية قصيري القامة بوجه عام. ويعود السبب في هذا الاختلاف إلى أن العيش في أجواء تحيط بها الثلوج طوال السَّنة أجبر سكان المناطق القطبية على لفِّ أنفسهم، والتكور في الليل طلباً للدفء. أما في القارة السوداء، فنلاحظ أن معظم الرجال والكثيرَ من النساء فيها يتميزون بنحافة الأجسام وطول القامة، لأن شدة الحرارة كانت وما تزال تدفعهم إلى مـدِّ أجسامهم للتَّهوية، وكذلك هو الحال بالنسبة لنسيم الصباح والليل المنعش الذي يوفر لهم فرصة التجول والتمدد والتمـتع بالظلال والهواء الرطب.

قد يقول بعضُ البيض الذين ورثوا ثقافاتهم عن المستعمرين الأوروبيين إن اختلاف الثقافات يُعتبر وحده دليلاً على اختلاف الأجناس، وتباين الأعراق، وإن كل جنس له ثقافة خاصة تُميّزه عن غيره من أتباع الثقافات الأخرى. إن هذا تحليل خاطئ من الناحية العلمية، لأنه يقوم على فهْم غير صحيح لمكونات الثقافات وسبب تباينها، واختلاف خصائص ما ينبثق عنها من عاداتٍ وتقاليدَ وقيم ومواقف وطرق تفكير. إضافة إلى ذلك، يأتي هذا التفكير وما ينبثق عنه من استـنـتاجات غير علمية ليبرِّر ممارسة التفرقة العنصرية ضد الغير من الشعوب، ويضفي شرعية على المواقف غير الأخلاقية التي اتخذها الإنسان الأبيض تجاه الشعوب التي تـنـتمي لثقافات غير غربية.

قبل ثلاثين ألف سنة تقريباً كان الناس جميعاً يعيشون حياة تَجوال وتـنقل، يقـتاتون على ما يجمعونه من حبوب وفواكه وخضراوات، وما يصطادونه من حيوانات وأسماك. وقبل نحو عشرين ألف سنة، كان كل الناس، في بقاع الأرض كافة يعيشون حياة قبلية تـقوم علاقات الناس فيها على الولاء المطلق للقبيلة وتقاليد القبيلة وأعرافها، وعلى العداء للقبائل الأخرى. وفي الواقع، كان كل لقاء بين الغرباء من الناس، وحتى سبعة آلاف سنة مضت، يعني قيام كل شخص بمحاولة قتل الآخر، لأنه لم يكن لدى الغرباء وسيلة

للتواصل والتفاهم. لكن بعد أن اكتشف الإنسان دورة حياة النبات ونجَح في تطوير فنّ فِلاحة الأرض، أصبحت جميع القبائل التي هجَرت الحياة القبلية تعيش نمطاً زراعياً واحداً، وتنتمي لثقافة واحدة، هي ثقافة الزراعة. وهذا يعني أن كل البشرية مرَّت بنمط حياة وثقافة العصر القبلي، ومن ثمَّ نمط حياة وثقافة العصر الزراعي قبل أن يصل البعض إلى نمطِ حياة وثقافة العصر الصناعي، أي الثقافة الغربية.

في أول زيارة **قمتُ بها** لمتحف الفنان العالمي (فان كوخ) في مدينة أمستردام في هولندا، وقفت مشدوهاً أمام لوحات غير مشهورة لذلك الرسام العظيم. كانت اللوحات المعنية تصف حياة البيت الريفي في هولندا وبلجيكا وفرنسا في أواخر القرن التاسعَ عشر. وحين تأملت وظيفة ذلك البيت التقليدي، وجدت أنها تشبه وظيفة البيت الذي وُلدتُ فيه في فلسطين، والبيت الريفي في مصر الذي عرفتُه في ستينات القرن العشرين، والبيت الريفي المغربي الذي عرفته في أوائل القرن الواحد والعشرين. لذا قلت لو أن الفنان (فان كوخ) عاش مئة سنة أخرى لكان بإمكانه أن يرسم اللوحات نفسَها في المغرب، أو تايلاند أو المكسيك، لأن حياة البيت الريفي في تلك البلاد في أواخر القرن العشرين كانت شبيهة بحياة البيت الريفي في معظم بلدان أوروبا قبل ذلك بقرن من الزمن. وهذا يعني أن الثقافة الأوروبية تطورت من ثقافة قبلية إلى ثقافة زراعية إلى ثقافة صناعية، وأنها لم تولد كما هي اليوم، أو كما يحاول البعض أن يقدمها للعالم على أنها ثقافة مميزة موروثة منذ أجيال. ولو نظرنا إلى ثقافة المنشغلين في الصناعة في اليابان وكوريا الجنوبية والصين اليوم فسوف نكتشف أنها تشبه ثقافة الفئات الأوروبية والأمريكية المماثلة، فيما تختلف بشكل كبير عن ثقافات الفئات الشعبية التي ما تزال تمارس فِلاحة الأرض، وتعيش نمط حياة زراعياً في معظم دول العالم غير الرأسمالية، بما فيها الدول الآسيوية الصناعية.

إن إدراكنا الحقيقة التي تقول إن جميع البشر ينتمون لأصل واحد من شأنه أن يجعلنا ننظر إلى كل امرأة تكبرنا في السن وتنتمي لحضارة تجاوزناها بقرن تقريباً على أنها تعكس صورةَ جدةٍ لأحد أجدادنا. وهذا من شأنه أن يدفعنا إلى التقرب منها ورؤية التاريخ حياً في مواقفها وتقاليدها وطريقة حياتها وما لديها من أمثال وحكايات وحكم، وبالتالي النظر إليها بعين الرضا والتقدير والمحبة. أما الادعاء بأن الثقافة تعكس الانتماء إلى جنس أو عرق مختلف وربما متخلف، فمن شأنه أن يدفعنا إلى النظر إلى غيرنا من شعوب نظرة شك وريبة، ما يجعلنا نتحاشى التقرب منهم والتفاعل معهم، وقد يحرضنا على مناصبتهم العِداء والكراهية من دون سبب، وهذه مشاعر تنتقص إنسانية الإنسان وتحرمه من متعة الحياة والسعادة التي يشكل التنوع الثقافي أحدَ مصادرها الرئيسية. إن وعيَ الأمور المتعلقة بنظريات الوجود الإنساني،

وإدراك أهمية أبعادِها على رؤيتنا لبعضنا من المؤكد أن يجعلنا أكثرَ إنسانيةً ومَيْلاً للتعاون مع غيرنا من البشر والتعاطف معهم، وأكثر احتفاء بالتنوع الثقافي الذي يُثري حياتـنا ويعززُ إنسانـيـتـنا جميعاً.

4

الإنسان والطبيعة

الإنسان جزء من الطبيعة، يُولد فيها، يتربى في أحضانها، ينمو ويكبر على عطائها وخيراتها، ويتعلم الخيالَ وصفاتِ الجمال من شموخها وأزهارها وورودها وعطرها وجبالها وغيومها وبحارها وطيورها. وحين يموت الإنسان، لا يجد حِضناً غير حضنها الدافئ ملجأً يأوي إليه، يضم جسدَه الفانيَ، ويحميه من التعفُّن والحيوانات المفترسة، ويصنع منه سماداً عضوياً يُسهم في تجديد خُصوبة الأرض وزيادة عطائِها. وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في غياب الطبيعة أو حتى بعيداً عنها، فالهواء الذي يستنشقه، والخبز والرز الذي يأكله، واللحوم والفواكه والخضراوات والأسماك التي يتغذى عليها هي من نتاج الطبيعة، كما أن الماء الذي يشربه ويمدُّه برحيق الحياة ينبع من بطن الأرض، وينزل من سمائها، والشعور بالهدوء وراحة النفس يعكسُ هدوء الليل ونقاء الجو وسحر القمر تحيط به النجوم من كل جانب. إنَّ روح الفنّ والغناء والغزل وموهبة الشعر والفكر الخلاق وُلدتْ كلُّها مع القمر على لحن حبَّات المطر تتساقط على الشرفات الخشبية، ومع التأمل في طبيعة الطبيعة وعظمتها.

إن مَن لا يُحبُّ الطبيعة كما يحب نفسَه، ولا يدافع عن البيئة ولا يعتني بها، لا يمكن له أن يعيش حياة كاملة، فالإنسان بلَحْمه وعظمه ودمه وعقله وقلبه وعينيه هو جزء من الطبيعة، فلولاها لَمَا كان.وهذا الأمر يوجب على الإنسان أن يحرص على العناية بالبيئة أينما كانت كي يتمتع بحياته، ويضمن لأطفاله وأحفاده مستقبلاً أفضل يوفر لهم الغذاء والماءَ والطمأنينة وهدوءَ الروح، وليل السهر والسمر مع القمر، ودِفْءَ الشمس في أيام الشتاء الباردة. وكي تبقى الأنهار والبُحيرات والبحار مِعطاءة، فإن على الإنسان أن يُربي أطفاله ويحُثّ جيرانه وأصدقاءَه وعامة الناس على حُب الطبيعة وواجب العناية بها، فالعِناية بالطبيعة هي الشيءُ الوحيد القادر على الحِفاظ على رَونق الجِبال والغابات، ونقاء البحار والأنهار والبحيرات، وتمكينها من استضافة كل من يؤمها من الناس للاستحمام في مياهها العَذْبة والمالحة، واصطياد بعض أسماكها اللذيذة، والتعرف إلى ما في بطونها من كنوزٍ وأسرارٍ وحكاياتِ أزمنةٍ قديمة وشعوبٍ بائدة.

إن حب الطبيعة والعناية بها يشكلان الخطوة الأولى على طريق الحب، حبّ النفس وحب الآخر وحب الحياة، لأن حب الطبيعة والعناية بها هما مفتاح التمتع بالحياة وجمال الحياة بعيداً عن صَخَب الحياة.

إن مَن لا يحب الطبيعة لا يحب نفسَه، ومن لا يحب نفسه ليس بإمكانه أن يحب إنساناً أو حيواناً، زهرة او وردة، فراشة أو عصفوراً، نهراً أو بحراً. ومن لا يحب هذه أو تلك من الأشياء يَخسَر حكمة دهر يتعلمها الإنسان الواعي من الطبيعة، ويُهدر فرصة العمر من دون أن يُكوّن ذاكرة تزخَر بسحر الحياة ومتع الشقاوة فيها. وهذا يعني أن حب الطبيعة هو تعبير عن حب الإنسان لروحانيات الحياة التي تترفع عن المال الملوث ومظاهر الحياة المُفرَّغة من روح الحياة، فالمال الملوّث ومظاهر الحياة تقود صاحبها إلى التنازل عن معظم ما هو إنساني ورُوحاني في داخله.

إن حب الإنسان للطبيعة وغيره من البشر، ومشاركتهم مشاعرهم الحَزينة والمفرحة على السواء، ومدَّ يدِ العون لمن يحتاج إلى مساعدة منهم، والتعاطف معهم في أفراحهم وأحزانهم، هي منظومة متكاملة من المواقف والسلوكيات والقِيم التي تجعل الحياة تسمو فوق ماديات الحياة. كما أن التطلع نحوَ المزيد من المعرفة العِلمية، والتأمل في الحياة والكون والوجود، ومناجاة الضمير بين الفينة والأخرى هي أمور تعكس بحد ذاتها إنسانيةَ الإنسان وروحانية الحياة في آن واحد، وهذه أمور من شأنها أن تقود الإنسان الواعي إلى مكان هادئ آمن، حيث تعيش الإنسانية في حِضن الطبيعة في طمأنينةٍ وأمان.

5

السكون المتأمل

يعيش الإنسان حالات مختلفة من السكون وشرود الذهن، والهروب الواعي أحياناً في الزمان بعيداً عن المكان، والهروب غير الواعي أحياناً أخرى في المكان والزمان في حالة ضياع في اللاشيء، وهذه حالة تعكس إحساساً عارماً باليأس او الاستسلام. حين يهرب إنسان في الزمان بعيداً عن المكان، يكون هروبه في الحقيقة هروباً من واقع لا يحسّ فيه بالأمل، إلى مستقبل جميل يتخيله ويحاول أن يصنعه بنفسه. لذلك نلاحظ ملامح الجِدَّية على وجهه، والشرود في عينيه، وكأنه ينظر إلى غابةٍ كثيفة خضراءَ تجلس فوق قمة جبل يتأمل عظمتها، ويحاول اختراقَها، ورؤية ما تخفيه في داخلها من حيواناتٍ وطيور غريبة تتجول في فضاءاتها بحُرية. الأمر الذي يجعل مثل هذا الإنسان يتخيل غَزَالاً يقف وحيداً على طرف الجبل، يزهو مختالاً بقامته وعُيونه الواسعة التي تـتّـقـدُ ذكاء، وحبَّ استطلاعٍ يتجاوز ما يعرفه البشر. ولما كان الغزال أكثر حساسية من الإنسان بمراحل، فإنه يتمتع بقدرة أكبر من قدرة الإنسان على استطلاع معالم المستقبل وقراءة ملامحه، طبعاً إلا إذا غدَر به إنسان أو حيوان مفترس، فالغَدر من سِمات الأقوياء والجُبناء من المخلوقات، والاستسلام للقدر من سِمات الضعفاء.

لكن حين يشردُ ذهن إنسان محاولاً التجول في متحف الذكريات التي تختبئ في حضن الماضي، فإننا نلاحظ أنه يبتسم بهدوءٍ وتأمل كأنه يستقبل صديقاً قديماً يراه قادماً من بعيد بعد فراقٍ طال. وما أن يعانقه حتى يسترخي تماماً في مكانه كأنه يغرق في حِضن حبيبة يستعيد على صدرها أيامَ طفولته الأولى... طفولة علمته كيف يتمتع بالحياة المُفعَمة بالحب والعشق والحَنان، وكيف يتذوق آلامَ الشوق والفِراق القاسية لأول مرة. إن محاولة استكشاف كنوز الحياة والطبيعة والذات البشرية هي محاولاتٌ لاختبار مدى قدرة الإنسان على اكتشاف ذاته واسترجاع ما فات من ذكرياته وفصول حياته، وما عاشته تلك الذكريات من شقاوة ومغامراتٍ عبثية، ملفوفة بعَباءة الحزن، معطَّرة بنَشْوة الفرح.

حين يضحك إنسان وحده ضحكة كَسُولة لا يشاركه فيها أحد ممن يجلس حوله من الناس، فإن الإنسان المعني يكون في مثل هذه الحالة يسخر من واقع حياته، ويستهزئ بشيء ما بعيداً عن عيون الآخرين. لكنه استهزاء يعكس تحسراً على فُرصٍ ضاعت ولن تعود، وعلى ما فات من سنين العمر من

دون إنجاز يُذكر. وهذه أمور تـقود الإنسان عادة إلى الشعور بالنَّدم على عدم القيام بما كان عليه أن يقوم به في الوقت المناسب، وكان قادراً على القيام به لتصحيح مسار حياته، والتمتع بها وإثرائها. وهذا من شأنه أن يدفعه إما إلى إعادة النظر في مسيرته الحياتية والتوجه نحو تجديدها، أو إلى الاستسلام إلى معطيات تلك الحياة، والقبول بالعيش على هامش حياة عقيمة مُفرغة من العمل والأمل.

أما حين يغرق إنسان في بحرٍ من السكون والهدوء التامّ، كأنه يعيش حالة من الضياع تعزِله عن كل ما يجري حوله من أحداث وبشر، فإنه يكون في الواقع قد دخل حالة من الوعي الداخلي، بعيداً عن صخب الحياة، يحاور ضميره ويجادله على انفراد، ويراجع معه أحداثَ عمره ومعطيات زمنه، محاولاً اكتشاف ما لدي الضمير من كنوز ماضوية يعلوها الصَّدَأ. وهذا يأتي عادة في سياق سعي الإنسان الحثيث لتعلم معارف جديدة وعبرٍ ماضوية يمكن استخدامها لتقويم مسيرة الحاضر، واستشراف آفاق المستقبل، والتعرف إلى ما قد يحمله ذلك المستقبل من مفاجآتٍ وفرصٍ... مفاجآتٌ وفُرَصٌ يمكن توظيفها لجعل الحياة أكثر إنتاجية، والتفاعل مع غيره من الناس أكثر متعة، والعيش في ظلال الوعي، والعلم أكثر اطمئناناً.

6

الحمار والإنسان

هذه قصة طريفة وصلني الجزء الأكبر من تفاصيلها على الإنترنت، لا أدري مَن كتبها، لكنني شعرت أنها بدأت بشخص، وانتهت بحكاية يسرد تفاصيلها مجموعةٌ من الأشخاص. لذا، سمحت لنفسي بإجراء تعديلات عليها، وإضافة بعض التفاصيل الجديدة كي تعبِّر بشكل أفضل عن مشاعر الكثير من الناس الذين يتخذون الموقف نفسه من الإنسان والحمار. وهنا لا بد أن أعترف بأنني من المعجبين بشخصية الحمار وسلوكه ومواقفه النبيلة، ولذلك أسندتُ له دوراً رئيساً في روايتي **"هروب في عين الشمس"**، وكتبت عنه قصيدة تعكس تقديري له، جاءت تحت عنوان **"الحمار الحليم"،** ستأتي في الجزء التالي.

أما القصة التي يدور الحوار فيها بين حمار وابنه، فهذه تفاصيلها:

كان يا مكان في حديث الزمان
بعض الحمير في أحد الإسطبلات العربية
تعمل بإخلاص وتفكِّر بهدوء وروية
تنام الليل راضية دون شَخير
بلا لِحاف، فرشة، أو حَصير

قرر حمار صغير ذاتَ يوم أن يُضرب عن الطعام
وأن يتوقف عن النهيق في النهار وفي الظلام
انزوى في ركن صغير في حَظيرة يسكنها العفَن
تهدَّلت أذناه، ضعُف جسمه، وذوَى من الوهن
وكاد يسقط على الأرض من عُمق الألم
أدرك الحمارُ الأبُ أن وضع ابنه يتدهور كل يوم
وأراد أن يفهم سببَ الضعف حتى لا يقع في اللوم

زار الأبُ الابنَ في الليل على انفراد

يستطلع حالته الصحية المتدهورة باطراد
حتى لا يفقد الأمل ويموتَ بسكتةٍ قلبية
ويغدو الأبُ والابنُ لظلم البشر ضحية

سأل الأبُ الابن قائلاً، ما بك يا بني... ماذا تعاني؟
هل تحتاج لطبيبٍ، دواءٍ، أو مداوي؟
أخبرْني لماذا تُضرب عن الطعام
هل أزعجك رجل، امرأة، أو غلام؟

رفع الحمارُ الابنُ رأسه عالياً وقال:
نعم يا أبتي، إنني مستاء من حالنا بين البشر
يوجهون إلينا الإهانات كزخَّات المطر
يسخرون منا نحن معشرَ الحمير
نخدُمهم ليل نهار ولا نسأل حتى عن شعير
نسُوا أننا مخلوقات تستحق الاحترامَ والتقدير
كأن الخائن منهم شريف، والمخلصَ منا حقير

لا أفهم يا بني ماذا تعني، ولا ماذا تقول
دعْ عنك هذا الكلامَ الغريب، وهذا الشعور
لا أنت تعرف ولا أنا مَن هو المسؤول
آن الأوان لحَرث الأرض وتسميدِ الحقول
علينا أن نستعدّ قبل أن تشتد حرارة الصيف
ومتعة العمل في المزارع الخضراء تزول

تمهَّلْ يا أبتي قليلا
ألا تسمع الكبار من البشر والصغار
يقولون لكل شخص يتصرف بغباء يا حمار
كأن الغباء عقيدة لنا وشعار
إننا نعرف معنى الحياة، وكيف يكون الوفاء

نتألم، نبكي، لكننا نعيش بشرفٍ ونموت بكبرياء
لنا مشاعرُ حساسة، شموخٌ، عزة، وإباء
نفكر، نقتفي الأثر، ونعرف كلَّ طريق
نجوب الصحارى والجبالَ من أجلهم
وكُنا لهم منذ أن خُلقوا خيرَ رفيق

ارتبك الحمارُ الأبُ وتجمَّد في مكانه
لم يعرف كيف يرُدّ على تساؤلاتٍ كبيرة من حمار صغير
حرّك أذنيه يَمنة ويَسرة، استلهم من الطبيعة حكمة كون كبير
اقترب من ابنه يحاوره بمنطق معشَرِ الحمير
البشر يا بني خلقهم الله وفضّلهم على سائر المخلوقات
تعاملوا مع أنفسهم ومع الغير بقسوةٍ فعاشوا العمْرَ عثَرات
أساؤوا لأنفسهم قبل أن يتوجهوا لنا بالإساءة والإهانات

دعْني أسألك يا بني سؤالاً صغيرا
هل رأيت حماراً يسرق ممتلكات أخيه الحمار؟
هل رأيت حماراً يعتدي على طعام حمار آخر؟
هل رأيت حماراً يرفع دعوة على أحدٍ من أبناء جنسه؟
هل رأيت حماراً يَشْتمُ أخاه الحمار أمام الناس؟
هل رأيت حماراً يضرب زوجته أو أولاده؟
هل رأيت حماراً يدخّن سيجارة؟
هل رأيت حمارة تدخن أرجيلة؟
هل سمعت يوماً أن حميرَ أمريكا يخططون لقتل حمير العرب؟
طبعاً لم تسمع بهذه الجرائم، ولم ترها أبداً
هذه جرائم ليست من طبع الحمير
بل من طبع بشرٍ لا يحسنون التفكير
ويسيئون التفسير والتدبير

عليك يا بني أن لا تـنخدعَ بالعقل الإنساني
بل عليك أن تفكر بعقلك الحَمِيري الأصيل
ارفَعْ رأسك عالياً لترفع رأسَ بني الحمير
اترك البشر يقولون ما يشاؤون
لا تهتم بما يقوله الكبيرُ منهم أو الصغير
الفقير أو الثري، الحقير أو الأمير

عاهدني أن تبقى كما خُلقتَ مخلصاً صَبُوراً
ترفع عقيدة الوفاء والصبر الحَمِيري شعار
وتعيش العمر حماراً ابن حمار
فيكفينا فخراً أننا لا نقـتل، لا نسرق، لا نـتملق، لا ننافق
لا نعتدي على بعضنا بعضا، لا يغتاب أحدنا الآخر
نحبُّ لا نكره، نصدِّق لا نكذب، نشقَى لا نـتذمر

صدقت يا أبتي، قال الحمارُ الابن
سآكل الشعير وأعيش حياتي أمير
سعيداً بعملي ورزقي القليل
أحافظ على موقعي في سُلم المخلوقات
وأبقى كما عهدتـني حماراً ابنَ حمار
يحترم نفسه ويقدِّر جميع الكائنات

سأترك الإنسان ابن الإنسان
يعيش حياته طاغية يمارس العدوان
لا يعرف السِّلم يوماً أو الأمان
لا يُؤتمن على شيء في هذا الزمان
يقف أمام الفأر كالقِط أسد شجاع
وأمام القط يتحول إلى فأر جبان

7

الحمار الحليم

جلسَ هناك

وحيداً بلا جدار، بلا أشجارْ

تحميه من الشمسِ

من الحرّ

من عاصفةِ غُبارْ

مُغْمضُ العينينِ

في صحراءَ قاحلةٍ

حارقةٍ

يَحتمي بظلِ حِمارْ

وعلى الجانبِ الآخر

جِنانٌ وارفةُ الظلالْ

قصورٌ شامخةٌ

حدائقُ يانعةٌ

مياهٌ جاريةٌ

طيورٌ وأزهارْ

يملكها سلطانٌ عابسٌ

ورث عن أجداده المُلكَ

وبعضَ وقارْ

وأسوارا ً من الجهل والفقرِ
شيَّدوها حولَ الشعبِ
أعلى جدارْ

نظرت ُ إلى السماءِ
أُناجيها
أسألها عن العدلِ
عن الغيبِ
عن الأسرارْ

وأتساءلُ عن الشقاءِ
طريقِ الثراءِ
أسبابِ البؤسِ
ذنوبِ التعساءِ
وتعسُّفِ الأقدارْ

انتظرتْ حتى تعبتُ
وطالَ بي الانتظارْ
لم أسمعْ جواباً
استفساراً
ولا أعذارْ

ومن بعيدٍ بعيدٍ
سمعتُ صوتَ المؤذنِ
مبحوحاً

مهموماً
يلعنُ الأبالسةَ
والأشرارْ

يُحذِّرُ المؤمنينَ
من غِوايةِ الشيطانِ
من حياةٍ فانيةٍ
من عذاب القبرِ
والنارْ

ويحثُهم على الصبرِ
الصلاةِ والصومِ
مساعدةِ الفقراءِ
إطاعةِ أولي الأمرِ
والاستسلام لمشيئةِ الأقدارْ

أدرت وجهي نحو الحمارِ ْ
وجدتُه يقفُ بثقةٍ
وكلِ وقارْ
يحترقُ
يختنقُ
ليحمي سيدهَ من قسوةِ الشمسِ
من الحرِ
وعاصفةِ غُبارْ

شعرتُ برغبةٍ جامحةٍ لمصافحتهِ
مُعانقتهِ
وتـتويجه أميراً للرحمة ِ
على أرضٍ سادها الظلمُ
عَمَّها الفسادُ
استباحَها الأقوياءُ
وغرقَ في أوحالِها الشُّطارْ

رأيتُ في عينيهِ دمعةَ حزينة
غضباً عارماً
وشعلةَ نارْ
تبكي أمةً جاهلةً تائهةً
تحسبُ الخنوعَ تواضعا
والفقرَ قدرا
والذلَّ صبرا
والصراحةَ وقاحةً
وتحسبُ الحبَّ عارْ

أمةٌ سادها الجهلُ
والبؤسُ
وخيّمَ على أرضها ظلامُ الليلِ
مؤسساتُ القـمعِ
وعقليةُ النفاقِ والاستهتارْ
تـتباهى في روابيها السجونُ

وتغيب عن سمائِها الحريةُ
قصورُ العدلِ
وعُذريةُ الأفكارْ

وعلى شفتيه سمعتُ همساً
كلماتِ إباءً
واستنكارْ
ترفضُ إمارةً عاقرةً
وقصوراً فاجرةً
يُلطخُ جبينَها الذلُّ والعارْ

انحنيتُ إجلالاً لحمارٍ شهمٍ
شقاؤهُ رحمةٌ
غباؤهُ حِكمةٌ
عِنادهُ قدوةٌ
تُجدد الأملَ
وتُشرفُ الأحرارْ

8

الانتماء والتفرقة

الانتماء هو الارتباط بشيء مادي مثل الأرض، أو بشيء معنوي مثل الوطن والدين والحزب، أو بشيء بيولوجي مثل العائلة، أو بشيء إنساني مثل المنظمات التي تسعى للتجاوب مع رغبات الناس وحاجاتهم المادية والنفسية. ولما كان كل إنسان ينتمي إلى واحدة أو أكثر من تلك التشكيلات، فإن الانتماء هو جزءٌ من الحياة الاجتماعية لكل فرد، إذ لا تكتمل حياة إنسان، ولا يشعر فردٌ براحة نفسية إلا إذا كان عضواً في مجموعة صغيرة من البشر، يشترك مع بقية أفرادها في أشياء تهمه وتعنيه، وذات علاقة بماضي حياته أو حاضره أو مستقبله. وفي ضوء تنوع نشاطات الفرد واهتماماته وضعفه في مقابل المجتمع والدولة، فإن كلَّ فرد وجَد نفسه، أحياناً من دون وعي، ينتمي لأكثر من مجموعة من الناس تشكل فيما بينها حلقات متنوعة، بعضها هرمي مثل العائلة والعَشِيرة، وبعضها الآخر أفقي مثل الجمعيات المهنية والخيرية، كما وجد نفسه أيضاً يعيش في جوٍّ من التناقض بسبب تقاطع أهداف بعض حلقات الانتماء مع بعضها، وتكامل بعضها الآخر، واتجاه جميع الحلقات إلى التنافس فيما بينها بشكل مباشر أو غير مباشر.

وبسبب طبيعة الانتماء وما يترتب عليه عادة من تقاطع وتكامل وتنافس في المواقف والأهداف، فإن سلوك الفرد وموقفه من الذات وغيره من الناس أصبح يَخضع لتيارات ثقافية وفكرية ومصلحية متعددة الأهداف، متباينة الاتجاهات، من الصعب التوفيق فيما بينها. لذلك كان على الفرد الذي يرغب في تحسين فرص نجاحه في تحقيق ما يسعى إليه من أهداف أن يعمل على تطوير حلقات الانتماء التي ينتمي إليها، وأن يُسهم في تعزيز أسباب تكاملها وإضعاف عوامل تناقضها، وأن يقوم بتعديل مواقفه للتجاوب مع ظروف الواقع وتحدياته المتغيرة والمتزايدة في آن واحد. وهذا يتطلب حرصَ الإنسان على تنمية ملكاته العقلية ومواهبه الخلاقة ومعارفه العلمية، والتعرف إلى معطيات المكان والزمان الذي يعيش فيه، والعمل الدؤوب على استكمال متطلبات النماء والانتماء، وبناء شخصية تتصف بقدر كبير من الاستقلالية الفكرية والحرية الاجتماعية والأمانة العلمية والمثالية.

إن كل إنسان يأتي إلى الحياة، يولد وعلى كتفيه إرثٌ ثقافي واجتماعي لا يستطيع أن يتخلى عنه، أو يُنكره في مراحل حياته الأولى، وإن كان بإمكانه أن يتجاوز كل الموروث أو معظمه من أفكار وقيمٍ وتقاليدِ

عادات ومعتقدات في مراحل النضوج اللاحقة. إذ حين يتخلى إنسان عن إرثه الثقافي، فإنه يتخلى عن جزءٍ أساسي من شخصيته وعلاقاته مع الكثير من الناس المقربين إليه، وذلك يفرض عليه أن يتخلى عن الإطار الأوسع الذي ينتمي إليه، ويعيش فيه، ويسعى لتحقيق أهدافه من خلاله. ولمَّا كان كل إنسان يشعُر بحاجةٍ للتحرر مما يُعيق تفكيره ويُكبّل حريته ويُبطِّئ حركته من أشياء مادية ومعنوية من ناحية، ويتطلع إلى إطار انـتماء يستكمل من خلاله وجودَه الاجتماعي من ناحية ثانية، فإن كل إنسان يجد نفسَه يعمل في اتجاهين مختلفين يميلان إلى التناقض. **الأول** هو تحرير الذات من المكبلات، وبناء شخصية تـتمتع بقدر كبير من الحرية والمسؤولية والاستقلالية، **والثاني** هو المشاركة في تطوير إطار انـتماء يكون أكثرَ تجاوباً مع احتياجاته الآنية وطموحاته المستقبلية. مع ذلك، من الممكن أن يقوم الإنسان باستبدال إطار الانـتماء الأهمّ بإطار آخر، يكون أكثر قدرة على التجاوب مع احتياجاته في مرحلة ما من مراحل حياته المهنية أو الفكرية أو العاطفية. لكن لا يستطيع إنسان أن يتخلى كلياً عن إرثه الثقافي وانتماءاته الاجتماعية إلا بالانفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه، والانتقال إلى مجتمع آخر يعيش فيه بعيداً عن المكان الذي وُلد فيه، وتربَّى على الانتماء إليه، مع الالتزام بعدم العودة إلى الإرث الثقافي القديم مهما تطلَّب الأمر. لكنَّ قراراً بهذا الحجم والأهمية من شأنه في معظم الحالات والأحيان أن يقود الإنسان المعنيّ إلى التخبط والضياع، وأحياناً إلى الإحباط وخيبة الأمل، وربما إلى اليأس، كما أنه ليس ثمة داعٍ لمثل هذه القطيعة مهما كانت الأسباب.

في بعض الحالات والأحيان، تـقوم الأغلبية الثقافية أو "القومية" أو الدينية أو الفكرية في المجتمع بعزل الأقليات وممارسة التفرقة ضدها، وذلك على الرغم من انتماء الأغلبية وتلك الأقليات إلى شعب واحد، ووطن واحد، وإطار مجتمعي واحد. وهذا يسبِّب عادة في شعور الأقليات بالغضب، وقد يدفعها ذلك الشعور إلى العمل على تغيير الواقع بطرقٍ سلمية، أو غير سلمية من خلال إعادة هيكلة أطر الانـتماء والمؤسسات التي تـنظم العلاقات بين الناس في المجتمع الكبير. وما دام انتماءُ الفرد والجماعة داخل كل مجتمع ضرورة اجتماعية، على الرغم من تـنوع أشكال الانتماء وتباين صوره وأهدافه، فإنَّ من مصلحة كل مجتمع أن يجعل الانتماء مُـتاحاً لجميع أعضائه على قدم المساواة، مع سنِّ القوانين والتشريعات التي تضعف أسباب التناقض، وتـقوي عوامل التكامل بين حلقات الانتماء المختلفة. فالانتماء ينمي الشعورَ بحب شيء مشترك، ما يخلق لدى أعضاء المجتمع الواحد روحَ المواطنة التي تـقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، وتدفـعُهم إلى الحفاظ على الوطن وصيانته بوصفه الشيءَ المشترك الذي يربطهم مع بعضهم بروابط معنوية ومادية وروحانية تـثري الحياة الفردية والجماعية. ما يعني أن الانتماء لوطنٍ ومجتمع ضرورةٌ اجتماعية وحقٌّ مشروعٌ، وأن التنسيق بين حلقات الانتماء الاجتماعية والثقافية أمر لا بد منه لضمان الانسجام والاستقرار والسِّلم الاجتماعي؛ فالتفرقة على أساس الثقافة أو الدين أو "العِرق" جريمة

تـتـنكرُ لإنسانية الآخر، وتعمل على حِرمانه من حقه في الحياة حياة كريمة، والتكامل مع مُحيطه الاجتماعي داخلَ وطنه وبين أهله.

9

الهُوية الفردية والجماعية

تعتقد أغلبية الناس والمعنيون بقضية الهوية من المثقفين أنَّ الهوية الجماعية هي جزء من الثقافة الشعبية، وأن مصيرها مرتبط بمصير تلك الثقافة، ما يستدعي الحفاظ على الثقافة التقليدية بغضّ النظر عما تعانيه من تخلف وتشرذم، أو تخبط وضَياع. لكن هذا اعتقاد خاطئ؛ لأن هناك شعوباً عديدة ذات ثقافات متشابهة، لكنها ذاتُ هُويات جماعية مختلفة، وأحياناً متناقضة.

هناك ثلاثة مصادر رئيسية لكل هوية جماعية:

أولاً، الشعور بالانتماء لشيءٍ ما قد يكون عقيدة دينية أو سياسية، أو وطناً مشتركاً، أو شعباً قديماً واحداً ذا ثقافة واحدة.

ثانياً، الاعتزاز بشخصيات عامة تشكل رموزاً للجماعة المعنية بسبب مواقف تلك الشخصيات، وفكرها وتاريخها الذي قامت من خلاله بتجسيد مصلحة العقيدة أو الوطن أو الشعب المعني.

وثالثاً، شعور أفراد الجماعة المعنية بالوحدة من الناحية الثقافية، خاصة فيما يتعلق بالموقف من الإرث الحضاري وغيرهم من الشعوب، والنظرة إلى التاريخ والمستقبل. وهذا يعني أن الهوية الجماعية لا تعني الانتماء إلى أصل بعينه، بل ترتكز أساسا على وحدةِ الثقافة الشعبية وحبِّ الوطن، وسيادة شعور مشترك بوحدةِ التحديات المستقبلية والمَصير، والنظر إلى رموز واحدة بعين التقدير والمحبة.

يعود أصل كلمة **"قومية"** إلى تأسيس الدولة الحديثة في أوروبا إبّان عصر النهضة، تلك الدولة التي أطلق عليها اسم Nation State، أي "الدولة الوطنية"، ما جعل الترجمة العربية لا تعكِس الصفة المعنية للدولة الحديثة بدقةٍ. ويعود السبب في هذا الخطأ إلى أن كلمة "قوم" كانت تطلق على مجاميع البشر الذين يتصفون بالتجانس في الماضي، مما جعل العرب يستخدمون كلمة (قوم) لتحُل محلَّ كلمةِ وطن، علماً بأن معظمَ الدول القومية الأوروبية كان فيها وما يزال أقليات ثقافية ودينية ولغوية عدة. الأمر الذي يعني أن كلمة **"قومية"** التي يستخدمها العرب لم يكن لها دلالة عِرقية في الأصل، بل دلالة جماعية تشمَل المواطنين الذين أصبحوا، بحكم وجودهم معاً في مكان واحد وانتمائهم إليه، يشكلون شعباً واحداً، كما هو الحال في

الولايات المتحدة الأمريكية التي تعدّ دولة قومية، مع أنها تتكون من عشرات الجماعات الإنسانية ذات الأصول والثقافات والديانات المختلفة. وفي ضوء هذا الخلط في المعنيّ، اتَّجه العربُ إلى الحديث عن الدولة "الوطنية"، والدولة "القومية"، وذلك لوصف الدولة العربية القائمة اليوم (الدولة القطرية) والدولة الوحدوية التي يأملون تحقيقها في المستقبل.

جاءت حركة القومية العربية في بدايات القرن العشرين كردِّ فعل على ممارسات الاستعمار الغربي، وقيامه بتجزئة الوطن العربي إلى دول ودويلات وإمارات ومشيخات تسيطرُ عليها قياداتٌ ذات أهداف متناقضة لا تصب في مصلحة العرب الجماعية. ولمّا كانت الأقليات التي تعيش في الوطن العربي وتنتمي إليه قد سبق وجود معظمها وصولُ العرب أنفسهم من الجزيرة العربية، وأن أغلبيتها تؤمن بالإسلام، فإن كل أبناء تلك المنطقة رأوا الإسلام والمسيحية وغيرهما من ديانات وثقافات ولغاتٍ محلية أجزاءً متكاملة من مكونات الثقافة العربية والهوية الجماعية. لكن عدم توقف قوى الغرب عن التدخل في الشؤون العربية، وقيامها بالعمل على تمزيق النسيج الثقافي والاجتماعي والوُجداني لسكان كل دولة عربية بهدف السيطرة عليهم، واستغلال مواردهم، تسبَّب في تراجع الهوية العربية الجماعية لحساب هُوياتٍ وطنية وثقافية ودينية وطائفية تعددت بتعدد الدول العربية، وما تشتمل عليه تلك الدول من أقليات.

ومع أن دول الغرب الاستعمارية القديمة والحديثة هي التي قامت بتنشيط قِوى الإسلام السياسي وتأطيرها وتوظيفها في محاربة جيوش الاتحاد السوفييتي "الملحد" في أفغانستان، إلا أن قوى الإسلام السياسي سارعت في أعقاب هزيمةِ القوى الماركسية إلى طرح هُويةٍ إسلامية مناوئة للهوية العربية الجماعية، والهوية الوطنية القُطرية، وهويات الأقليات الفرعية على السواء. وقد تبع ذلك اتجاه هذه القوى إلى المناداة بوجوب عودة دولة الخلافة الإسلامية، وطرح نفسها بديلاً للقوى الوطنية التي وصفتها بالفاسدة، والتوجه نحو التفرقة ضد كلّ الجماعات والأقليات غير المنتمية لعقيدتها. ولمّا كانت القوى القومية هي القوى الوحيدة التي تملك فكراً وجماهيرَ تمكنها من التصدي لقوى الإسلام السياسي، فإن هذه القوى اتخذت موقفاً عدائياً من الفكر القومي والقوى القومية بشكل عام متهمة إياها بالضلال، كما قامت برفض ما دأبت القوى القومية على المناداة به من وجوب إقامة وحدةٍ عربية، والعمل على تحرير فلسطين والتحرر من الاستعمار، وتأسيس نُظم حُكم علمانية تضمنُ العدالة الاجتماعية وتحقيقَ النهضة والتقدم.

من جهة أخرى، أثبتت الدولة العربية الوطنية فشلها وإخفاقها في تحقيق التقدم والتنمية الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية، والحرية لمواطنيها، وتوعيتهم بما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، وما يواجه أوطانهم من تحديات مصيرية. وقد تسبب هذا الإخفاق في دفع هذه الدولة إلى استخدام سياسة **"فـرِّقْ تَسُدْ"**

التي اشتملت على تحالفِ النخبة الحاكمة مع بعضِ الأقليات والعَشائر وممارسة التفرقة ضدَّ بعضها الآخر، وذلك من أجل ضمانِ استمرارها في السلطة وهيمنتها على شعوبها. نتيجة لذلك، اتَّجهت العديد من الأقليات المظلومة والقبائل والعشائر غير المحظوظة إلى البحث عن هُويات فرعية تقوم على الطائفة أو الدين أو الثقافة أو النسب. وهكذا تم تفتيت الشعب الواحد إلى أكثرية وأقلياتٍ تتصف علاقاتها مع بعضها بالتنافر والتناحر ، وليس بالتسامح والتآلف.

نتيجة لهذه التطورات، اتجهت بعض الأقليات إلى تجزئة المجزَّأ، والمطالبة بالانفصال عن غيرها من أقليات وأكثريات، مما تسبب في تعميق الخِلافات المذهبية، وتكريس تخلف العرب وضعْفهم، ودخول الهويات الجماعية والوطنية والفرعية في أزمةٍ طاحنة.

وكما أوضحنا سابقاً، إنَّ مَن يؤمن من البشر بنظرية الخلق التي تقول بها معظم الديانات، وكذلك من يؤمن بنظرية التطور التي جاء بها داروين يدرك أن أصل كل البشر واحد. إذ فيما تقول الديانات السماوية الثلاث إن آدم وحوّا هما أبُ البشر وأمُّهم جميعاً، تقول نظرية التطور إن جميع البشر هم من نسل حيواناتٍ تشبه القِردة، بدأت رحلتها نحو الإنسانية من القارة الإفريقية. وهذا يعني أنه ليس هناك أقليات وأكثريات عرقية أو إثنية في الكرة الأرضية، بل هناك تعدد في اللغات وتنوع في الثقافات والأديان، وأن هذا التعدد والتنوع يشكِّل مصدراً أساسياً لثَراء الحياة البشرية. لذلك لا يجوز أن يكون التنوع الثقافي واللغوي والديني مصدرَ صراع فيما بين الناس، حتى لو خضعوا لنُظمِ حكم مختلفة، وأقاموا في أماكنَ متباعدة عن بعضها البعض، وعاشوا في فترات حضارية تفصلها آلاف السنين من التطور والتحول.

إن التنوع الثقافي واللغوي والمظهري المتعلّق بملامح الإنسان ولون بشرته، جاء أساساً نتيجة لتباعد الأماكن التي أقام الإنسان فيها في قديم الزمان، وانعزال بعضها عن بعضها الآخر. الأمر الذي يعني أن التنوع الثقافيَّ واللغويَّ والديني يعود إلى عدمِ قدرة التجمعات الإنسانية إبَّان مراحلِ تطور المجتمعات القديمة على التواصل والتفاعل **أولاً**، وتباين طبيعة البيئة التي عاشت فيها، وقدرة تلك البيئة على العَطاء **ثانياً**، وقيام التجمعات الإنسانية المختلفة بتطوير نظم حياتية تتناسب مع طبيعة بيئتهم واحتياجاتهم **ثالثاً**.

إن عدم قدرة الجماعات القديمة على التواصل كانت أيضاً سبباً في سيادة شعورٍ من الشك المتبادَل والعداوة بين مختلف القبائل، مما حتَّم تطوير نظم الحياة والثقافات القديمة في عُزلةٍ شبه كاملة عن بعضها. وهذا يعني أن التنوع الثقافي وتباينَ ألوان البشر وملامحهم ليس جزءاً من جينات بيولوجية وُلدت معهم، وإنما هو ضرورة اجتماعية وُجودية حتَّمتها طبيعة التطور ذاتها ومسيرة تطور المجتمعات الإنسانية عبر

التاريخ. أما فيما يتعلق بما يقال أحياناً عن وجودِ جينات ثقافية، فهذا قول خاطئ علمياً، يقوم على عنصرية هدفها تعميقُ التفرقة والعداوات بين البشر، وتمكين النُّخب الحاكمة من إحكام سيطرتِها على غيرها من الشعوب واستغلالهم وسرقة مواردهم.

10

العولمة والهوية الوطنية

أدى الانفتاح الاقتصادي والثقافي الذي فرضته العولمة على مختلف شعوب العالم إلى حدوث تواصل بين الناس، وتفاعل بين الأجيال لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية. ولمَّا كان التبادل التجاري والتواصل العلمي والمعرفي يؤدي إلى حدوث تلاقح بين الثقافات والأفكار، فإن الثقافات الوطنية تجد نفسَها اليوم مضطرة للاقتباس من غيرها من ثقافاتٍ أخرى، والسير في اتجاهات شتَّى تُبعدها عن الجذور والأصول. ولهذا يرى أتباع الثقافات التقليدية عامة أن التلاقح الثقافي يؤثر سلباً في ثقافاتهم وهُوياتهم الوطنية، مما يوجبُ حمايتها والذودَ عنها. لذلك اتجهت أغلبية مثقفي العالم الثالث، بمن فيهم مثقفو العالم العربي التقليديون، إلى التشكيك في العولمة وفي ما تحمله من تقاليدَ ومواقفَ وقيم وأفكارٍ وسلوكيات، واعتبارها خطراً يهدد هُوياتهم الوطنية وتراثهم الثقافي والديني.

في المقابل، اتجهت بعض الثقافات غير الغربية مثل الثقافة الصينية، وثقافات شعوب أوروبا الشَّرقية التي تحررت قبل ربع قرن من الماركسية إلى الترحيب بالعَولمة الاقتصادية، والانفتاح على غيرها من ثقافات وشعوب، فالعولمة تحملُ معها فرصا عديدة لحدوث تفاعل عِلمي وفكري، وتبادل تجاري، وتلاقُح ثقافي، وعمَالة وتنمية. وهذا يطرح سؤالاً مهماً للغاية لماذا يشتكي مثقفو العرب والمسلمون عامة من التلاقح الثقافي، بينما يرحِّب معظم مثقفي آسيا وأوروبا بالعولمة، وما تدعو إليه من تلاقح ثقافي، وتواصلٍ علمي وتفاعل إنساني؟ أعتقد أن هذا التناقض يعود لأسباب عديدة، أهمها:

1. إن الثقافات القوية تملك ما يكفي من المُرونة والثقة بالنفس لتواجه التحديَّ الثقافي من دون خوف، مما يجعلها تُقبل على التفاعل الثقافي من دون تردد. إذ بينما يمنحها الانفتاح على غيرها من ثقافات فرصة ثمينة للتعرف إلى تلك الثقافات وما لديها من جديد، يمكنها الانفتاح من استعارة ما يعزز مناعتها ضد التقادم والتآكل، ويساعدها على تحقيق أهدافها المستقبلية. أما ثقتها بالنفس فتمكّنها من رفض ما لا يتناسب مع ظروفِ حياتها وتطلعاتها المستقبلية، ولا يتجاوب مع جوهرِ رسالتها وقِيمها الوطنية والإنسانية.

2. إنَّ الثقافات الضعيفة أصبحت ضعيفة بسبب جُمودها وخوفها من عمليات التلاقح الثقافي، وذلك حماية لِما تعتزّ به من تراث وتقاليدَ وقيم تجاوزها الزمن. الأمر الذي يسلبها القدرة على مواجهة

التحديات الثقافية، والدخول في عمليةٍ تفاعلية انتقائية مع غيرها من ثقافات تـقوم من خلالها باستعارة ما هو إيجابي من عناصر ثقافية غريبة عنها، والابتعاد عما هو سلبي. وفي غياب القدرة على الانفتاح والتفاعل، يجد أتباع الثقافات التقليدية أنفسَهم يقـتبسون، غالباً من دون وعي، ما هو سهلٌ وجذاب من قيم وأنماط سلوكية كان تأثير معظمها سلبي على ثقافاتهم التقليدية. نتيجة لذلك، يجد المثقفون التقليديون أنفسَهم مضطرين لدق ناقوس الخطر، والدعوة لوقف عمليات الاقتباس حفاظا على عناصرَ تراثية مُسْتهلكة تكرِّس حالة التخلف والضعف.

إن التفكير برَوِيّـة وعقلانية أوصل أغلب مثقفي العالم إلى قناعة بأن التلاقح الثقافي وسيلة مهمة لحدوث إخصاب فكري، وتراكم معرفي، وتقدم عِلمي يصُبُّ في مصلحة الشعوب كافة، ويُسهم في تـنمية المجتمعات عامة، ويعمل على تعزيز كل توجه سِلمي وإنساني عالمي. في ضوء هذه الحقائق، اندفعت أغلبية مثقفي العالم غير التقليدين نحو إعادة هيكلة ثقافاتهم الوطنية على أسسٍ جديدة تعزِّز قدراتها التنافسية، وتقوي مناعاتها ضدَّ التشوه والاقتباس الأعمى.

ومن أفضل الأمثلة على هذا التوجه ما قامت به فرنسا بعد أن عجَزت عن إقناع الفرنسيين بعدم شراء الأغاني الأمريكية، واستخدام اللغة الإنجليزية، ومشاهدة المسلسلات الأنجلوسكسونية. لقد حاولت الحكومة اجبار وكالة الأنباء الفرنسية على استخدام اللغة الفرنسية فحسب، لكنها اضطرت لتغيير موقفها بسرعة حين اكتشفت أن عدد زبائن الوكالة تراجَع بشكل مضطرد؛ لأن عدد مَن يتقن الفرنسية من إعلاميين في العالم لا يقارن بعددِ مَن يتقن الإنجليزية. لهذا قامت فرنسا بدعم النشاطات الثقافية في بلادِها، وتطوير إعلامها وتـنويع البرامج الثقافية والترفيهية والإخبارية التي تـقدمها، وبالتالي جذب أعداد كبيرة من المشاهدين من مختلف الدول، خاصة دول العالم الثالث التي تـتحدث الفرنسية.

إنّ توفر الاتصالات الآنية عبر الأقمار الصناعية، وحصول كل بيت عربي تقريباً على طبق صناعي لاستقبال آلاف البرامج اليومية التي تبثها مئات المحطات التلفزيونية بعشرات اللغات جعل من غير الممكن حماية الثقافة العربية من عمليات التلاقح والتشوه الثقافي. وما دام أنه من غير الممكن حماية هذه الثقافة من التأثيرات الخارجية، فإن على المثقفين العرب إعادة هيكلة الثقافة العربية لتصبح أكثر قدرة على التفاعل الخلَّاق مع الثقافات الأخرى، دون التضحية بقدرتها على تعزيز الهُوية الوطنية للشعوب التي تـنـتمي إليها. وهذا هدف يمكن تحقيقه من خلال تطوير رموز وطنية جديدة غير مُستهلكة تحظى بإجماع شعبي، والتأكيد على دور الرموز التاريخية القديمة التي تعتز بها الشعوبُ العربية والإسلامية، ودعم

النشاطات الثقافية بوجه عام، خاصة اللغة العربية وحركة النشر، وصناعة الأفلام، والمسارح والفنون، وإعادة توجيه بوصلة العمل الشعبي والشبابي نحو الدفاع عن قضايا الأمة العربية والإنسان العربي.

تقوم العولمة اليوم بتَعْرية عيوب النظم المجتمعية كافة، وكشف مدى تـقادم الكثير من التقاليد والقيم، وتوعية الناس بما يحمله المستقبل من إمكانات التقدم والتحرر والرفاهية، ما يخلق أجواء عالمية تدفع في اتجاه توحيد المواقف في قضايا إنسانية مشتركة. إلى جانب ذلك، تـقوم العولمة بكشف الأوضاع المعيشية للغني والفقير، القوي والضعيف، الأمين والفاسد في كل مكان، ما يَجعل بإمكان كلِّ طرف أن يتعرف إلى ما يعانيه الطرف الآخر من فقر، وما يتمتع به من ترَف، قلق واطمئنان، بؤس وسعادة.

وهذا تطور يفتح المجال لتحرر الناس من زيف التاريخ، وكذب الأنظمة، وخداع الإعلام، وإعادة صياغة المواقف الفردية والجماعية على أسس جديدة. وهذا يعني أنه لم يعُد بالإمكان بقاء ثـقافة على حالها تعيش في عصر غير عصرها، أو بقاء هُوية (تغنّي على موَّالها) تعيش في زمن غير زمنها. وقد تسبَّبَ هذا التطور في خلقَ تيارات ثقافية لم تكن موجودة من قبل، تيارٌ عولمي فوقي متنامٍ من حيث العدد والعدة، وتيارٌ وطني متراجع من حيث القوة والحيوية، وتيارٌ تحتي يتحرك في مكان قديم يبحث عن زمانٍ جديد.

1. تيار عولمي فوقي يتكوَّن من شقين. **يضم الأولُ** كبارَ رجال المال والأعمال وأثرياء العالم وأغلب العلماء وكبار المثقفين غير التقليديين، فيما **يضم الثاني** أغلب الشباب والمراهقين الذين يتعرضون لفعل العملية الإعلاماتية الكونية، وما تبثه من برامجَ رياضية وترفيهية، ويقومون بقضاء ساعات يومياً على الإنترنت يتبادلون الرسائل مع غيرهم من شباب لا تربطهم بهم صلةُ نسَب أو جوار أو مواطنة. وفيما يتخلى أعضاء الفريق الأول تدريجياً عن ثقافاتهم الوطنية وولاءاتهم التقليدية خدمةً لمصالح اقـتصادية وعلمية وثقافية وإنسانية، يعيش أفراد الفريق الثاني في أجواء شبهِ مفرَّغة من جوهر الثقافة، يبحثون عن مُتعة آنية من دون اكتراثٍ يذكر لثقافةٍ وطنية أو عالمية.

2. تيار تحتي أو فرعي طمستْه الدولة الوطنية منذ زمن، وحالت ظروفُ السياسة والمعيشة السابقة دون ظهوره، لكنَّ ثورة الاتصالات مكَّنـته من العودة إلى السطح من جديد، كما مكنته من التطور ليصبح لاعباً أساسياً على الساحة الثقافية الوطنية. وفيما يضم هذا التيار الأقليات الإثـنية والثقافية والدينية، يقوم أتباعه بمحاولة إعادة إحياء ثـقافاتهم القديمة، ما يدفعُهم تلقائياً إلى التنافس مع بعضهم بعضاً، ويقودهم إلى الابتعاد عن الثقافة الوطنية الجماعية الجامعة.

3. تيار وطني تقليدي يحاول بقدر الإمكان الحفاظَ على الهوية الوطنية التقليدية من خلال التشكيك في التيارات الثقافية الفوقية والتحتية على السواء، والتحذير من خطر الأفكار والمواقف والسلوكات التي تـنبع من خارج حدود الدولة ومحدَّدات الأيديولوجية المهيمنة على المجتمع.

وفيما يقوم التيار العولمي بالتخلي تدريجياً عن الثقافة والهُوية الوطنية، يقوم التيار التحتي بتقويض الأركان الأساسية لتلك الهوية، ومناصبتها العداء أحياناً. أما التيار الوطني فيقوم بالتجديف ضد تيارين يستحوذان على المزيد من القوة والشرعية يوماً بعد يوم، ما يسبِّب تراجعاً في قدراته على الحفاظ على توازنه ودَوره التقليدي في المجتمع. وفيما يتجه أفضلُ العلماء والمثقفين إلى الالتحاق بركب التيار العَوْلمي، يتجه الأكثر التزاماً بقضايا الحُرية والعدالة الاجتماعية ومحاربةِ الفقر والجهل والانتهازيين إلى الالتحاق بركبِ التيارات التحـتية. وهذا يَجعلُ الثقافة الوطنية أضعفَ التيارات الثقافية بسبب فُقدانها لأفضل الكفاءات البشرية القادرة على تطويرها وتجديدِ شبابها. ولهذا نلاحظ أنَّ الثقافة الوطنية والهُوية الوطنية أصبحت عُرضة للتآكل والانحسار في بحرِ العولمة الهائج، وتحت تأثير أصواتٍ شاذة آتية من قبور ماضٍ سَحيق.

11

القومية والهوية

تحدثنا في بداية هذا الكتاب عن نظريات الوجود الإنساني على كوكب الأرض، مما جعل بالإمكان نفي مفاهيم الجنس والعِرق والإثنية، بوصفها مفاهيمَ غير علمية اخترعها قادة سياسيون وطائفيون بهدفِ تزييف وعي الجماهير، وتسهيل عملية السيطرة عليها. لكن كل الشعوب تقريباً تستخدم تعابير القومية والأمة، كما يستخدم العرب مفاهيمَ القومية العربية والأمة العربية، وكلمتَيْ العرب والعروبة، مما يجعل هذه المفاهيم تبدو متناقضة مع ما تقول به نظريات الوجود التي لا تعترف إلا بجنس واحد يضم البشر كافة.

مما لا شك فيه أنَّ مصطلحات القومية العربية، والأمة العربية، وعربي، وعرب، وعروبة تبدو متناقضة مع ما تقول به نظريات الوجود الإنساني. لكن كلمة عربي، شأنها شأن كلمات أوروبي وأمريكي وصيني، لا تعني الانتماءَ لجنس بشري معين، وإنما الانتماء إلى مكان معين، أو وطن معيَّن، أو جماعات من البشر تعيش معاً في مكان واحد، أو وطن مشترك، أو موزعة على منطقة جغرافية واسعة تسودها ثقافة واحدة تقريبا. فالأوروبي هو كل من يعيش في القارة الأوروبية وينتمي إلى دولة من دولها، والأمريكي هو كل من يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وينـتمي إلى ولاية من ولاياتها، وكذلك الحال بالنسبة للعربي الذي يعيش في المنطقة الجغرافية المسماة **"العالم العربي"** وينتمي إلى دولة من دولها.

وهذا يعني أن العروبة هي **انتماء ثقافي** في الدرجة الأولى، **وانتماء إقليمي** إلى منطقة تسكنها شعوب ترتبط مع بعضها بروابط ثقافيةٍ وتاريخية وجغرافية، وربما دينية أيضاً، مما يجعلها تشكل أمةٍ واحدة إلى حد كبير. لذلك وجب علينا أن نعي أن كلَّ الأقليات الثقافية والطوائف الدينية الإسلامية وغير الإسلامية التي تعيش في المنطقة العربية هي جزء من الأمة العربية، وأنها تـنـتمي إلى تلك الأمة من النواحي الثقافية والتاريخية والإنسانية.

يعتقد الكثير من أبناء الأقليات الثقافية والطوائف الدينية في البلاد العربية أن اتجاه الأغلبية والأقليات المتنفذة إلى التفرقة ضدهم هي المشكلة الأكبر التي تواجههم، وأن الانفصال عن الأغلبية هو الحلُّ الأمثل لتلك المشكلة. لكن هذه التفرقة، على الرغم من وجودها وبشاعتها أحيانا، ليست هي المشكلة الرئيسية التي تواجه الأقليات، كما أن التفرقة ضدهم لا تقوم على أساس وجودِ فروقٍ عرقية بين فئات المجتمع الواحد،

فالتفرقة ضد الغير تقوم أساسا على فهم خاطئ لمعنى العِرق والأقلية وعلاقتها بالأغلبية. وكما أشرنا سابقاً، قام بعض الساسة والمثقفين في الماضي باختراع مفاهيم العِرق والجنس والطائفة من أجل تزييف وعي الجماهير والسيطرة عليهم، وخلقِ ظروفٍ جديدة تتيح لهم فرصة تتويج أنفسهم حكاماً على الجماهير وأوصياء على ثرواتها ومصيرها.

وعلى سبيل المثال، قامت الأقلية التي تسمى اليوم (شعب ارتيريا) بخوض حربٍ طويلة دامت نحو (30) سنة مع اثيوبيا التي كانت جزءاً منها، والحصول على الاستقلال بعد موت مئات الآلاف من المواطنين. لكنّ أوضاع الشعب الارتيري المعيشية أصبحت أسوأ مما كانت عليه قبل الاستقلال، إذ بدلاً من تحرير الشعب الارتيري من الظلم والفقر، قامت النخبة الارتيرية الحاكمة بحرمانه من كل مُتَع الحياة، بما في ذلك حرية الرأي والفكر والمشاركة في العملية السياسية، مما جعل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان تقول إن سجل نظام الحكم في مجال حقوقِ الإنسان يعدّ من الأسوأ في العالم. ومع فقدان الحرية وإمكانات العيش الكريم، اتجه الارتيريون بأعداد كبيرة نحو الهجرة بحثاً عن مكان آمن يعيشون فيه. ودفع اليأس والفقر البعض منهم إلى المغامرة بحياتهم، كي يتخلصوا من لعنة الظلم الذي لحقتْ بهم على يد قادة خدعُوهم وقادوهم إلى جحيم الواقع الحالي. إنَّ ما حدث في أرتيريا لا يختلف كثيرا عما حدث في باكستان التي انفصلت عن الهند، فمستوى المعيشة والتعليم والتصنيع في الهند، وتوفر فرص العمل وشيوع الحرية والأمن أفضلُ بكثير من مثيلاتها في باكستان.

وعلى الرغم من أن التفرقة ضد الأقليات تقوم على فهم غير صحيح لمعنى التنوع الثقافي ووحدة الجنس البشري، وأن الكثير من أبناء **"الأقليات"** ينخدع بوعود قيادات موتورة هدفها الأول والأخير هو تحقيق مكاسب مادية ومكانة اجتماعية ونفوذ سياسي على حسابهم، فإن هناك عدواً مشتركاً لكل الفئات الفقيرة والمغلوبة على أمرها في كل مكان.

إن العدو المشترك هو الفئة الثرية التي تمثل واحداً في المائة من سكان العالم أجمع، وتملك نحو 50% من ثرواته، وتحصل على نحو 95% من كل زيادة في الدخل والثروة. ولما كانت التفرقة هي حصيلة جهل عامة الناس وغياب الوعي لديهم، وتعرضهم لخداع الأثرياء والأقوياء، فإن الحل يكمُن في توعية الجماهير عامة بوحدة الجنس البشري ودور التنوع الثقافي في إثراء حياة الناس من ناحية، والوقوف في وجه فئة الواحد في المائة التي تتمتع بثراء فاحش من ناحية ثانية. وهذا يستوجب إدراك أن هذه الفئة تقوم باستغلال الفقراء والضعفاء بشكل واعٍ، وتصميم على نهب المزيد من ثروات العالم، واستعباد أكبر جزء ممكن من البشر. وهذاس يعني أن حل هذه المشكلة يكمُن في وقوف كل فقراء العالم

من أقليات وأغلبيات في صف واحد ضد هذه الفئة الظالمة، والعمل معاً من أجل استرداد حقوقهم، وتنمية وعيهم باضطراد، وتحقيق العدالة في الأرض.

12

العبودية بين الأمس واليوم

العبودية نظام قديم حديث، يغيّر لونه، يبدِّل وجهه وشكله، لكنه لا يغير طبعَه أو طبيعته. أما العبيد فليسوا سوى إنسانية مستباحة، مسخَّرة لخدمة أسياد لا يعرفون التعاطف مع الضعيف أو الرحمة، هدفهم تحقير الإنسان، ومصادرة حقوقه وإرادته واستغلاله. وهذا يجعل العبودية نظاماً ظالماً يستهين بكرامة الإنسان وإنسانيته، ومشروعاً اقتصادياً يشكل أحدَ أهم مصادر الثروة للأسياد ووكلائهم في العالم. إذ فيما تجسِّد العبودية أبشَعَ وسيلةٍ لاستغلال الضُّعفاء والفقراء من البشر وإلغاء إنسانيتهم، وأحياناً وجودهم الاجتماعي، فإن الرجل الأبيض حصل على جزء كبير من ثَروته من خلال قيامه بالسَّطو على جهدِ العبيد وعَـرَقهم، خاصة عرق الرجل الأسود. وقد استخدم الرجلُ الأبيضُ هذا الدينَ والقوة وسيلة لحرمان العبيد من العلم، وإقناعهم بأن الاستعباد قدرٌ إلهي، عليهم أن يقبلوا به عن طِيب خاطر، وذلك من أجل أن ينالوا رحمة الله ويتجنبوا غضبَه.

أما العبيد، خاصة السود منهم، فقد وجدوا في الدين الذي حمَله الرجل الأبيض إليهم مصدرَ راحة نفسية، وأملاً في النجاة من عذاب الآخرة، ما جعل العبودية في حقيقة الأمر مشيئة إلهٍ ظالم، وجعل دين الله المزعوم لا يعترف بإنسانية الإنسان. ومع أن الرجل الأبيض أقـرَّ بظلم العبودية، وقام بإلغائها في النصف الثاني من القرن التاسعَ عشر، إلا أنه لم يقم بإعادة ولو جزءاً صغيراً من الثروة التي سرقها من العبيد على مدى مئات السنين. مع ذلك، استمرَّت العبودية حتى يومنا هذا على شكل تجارةِ الرقيق الأبيض بغَرَض الجنس، وتجارة العُمال للعمل في مصانعَ أمريكية وخليجية وآسيوية، وخدم في بيوت الأثرياء. ويتم استيراد هؤلاء بشكل قانوني أو تهريبهم بشكل غير شرعي من بعض الدول الآسيوية ودول أمريكا الجنوبية الفقيرة، وسرقة الأطفال من بيوتهم ومدارسهم واستعبادهم في الهند ونيجيريا وغيرها من دول.

كان المثقف العالمي وما يزال يشكل الخطرَ الأكبر الذي يُهدد مؤسسة العبودية، والضميرَ الحي الذي كشف ظلم ذلك النظام وقسوته، ما دفع مؤسسة العبودية والقوى المستفيدة منها إلى استخدام العنف والرِّشوة ومختلف أساليب القمع كي تحافظ على وجودها. فالإنسان المثقف قادر على رؤية الاستغلال، ومعرفة الفَرق بين الحرية والاستعباد، وفهم ما يدور حوله من تطورات اجتماعية وثقافية واقتصادية

وسياسية، كما أنه قادر على التواصل مع العالم الذي يعيش خارجه، والتفاعل معه بشكل إيجابي، يتعلم منه ويُعلمه، يأخذ منه ويُعطيه، يفرح لفرح البؤساء، ويَحزَن لحُزنهم، ويعيش في زمنه مُستمتعاً بعطاء ذلك الزمن. لذلك وقفت مؤسسة العبودية ضد المثقفين بشكل عام، وقاومت المحاولات التي استهدفت تعليم العَبيد، ما جعلها تتجه نحو التخلص من كل عقل متعلم يفكر بينهم. وهذا جعَل بعض العبيد المتعلمين في أمريكا ينكرون أنهم يعرفون القراءة والكتابة كي يحافظوا على حياتهم. فالعلم والحرية في عُرف السادة هي مِلكٌ لهم وحدهم، ما جعلهم يحاولون احتكار العلم، ويدَّعون ملكية منطق العقل والشرف. لكن السادة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم كانوا أفراداً وجماعات ودولاً، عبر مراحل التاريخ كافة، أدواتِ قهر واستغلال واستعباد، وسبباً من أهم أسباب الفقر والجهل في العالم، وعنوان القوة الظالمة الغاشمة.

ولما كانت العبودية تغيّر لونها، وتبدِّل وجهها، لكنها لا تغير طبعها أو طبيعتها، فإنها وجدت طريقة مبتكرة للحفاظ على وجودها، وحُكم العبيد الملونين بكل لون والتحكم في مصائرهم. إذ قامت بتدريب أسياد محليين ينوبون عنها، أي: خلق طبقة جديدة من العبيد المحظوظين في معظم الدول التي استعمرها الأسياد سابقاً، وظيفتهم الأساسية هي استغلال أبناء وطنهم لمصلحة الأسياد المُنعَّمين، وتجنيد المظلومين في خِدمة الظالمين. لهذا أصبح الحكام المُستبدون يسرقون المال والطعام من شعوبهم الفقيرة مقابل مكافأة تلك الشعوب بالمزيد من القهر والكبت والجهل، وإيداع أموالهم المسروقة في بنوك الأسياد الجالسين على عرش العالم ومن حوله في أوروبا وأمريكا. فكل حاكم مستبد هو حاكم فاسد، وكل فاسد يقوم باستغلال الفقراء والضعفاء، واستخدام الدين والفقهاء والكهنة والحاشية الفاسدة لتجهيل الشعوب المغلوبة على أمرها، وإقناعها بقبول الفقر والكبت والجهل الذي شاءه الله لهم. ومع أن هذا كذب وبهتان، إلا أن الجهلاء والبسطاء من الناس ليس باستطاعتهم أن يدركوا أن الله لا يوظف وكلاءَ ينوبون عنه في الأرض، وأنه لا يقرّ نظاماً يقوم بظلم العباد واستغلالهم واستعباد البعض منهم.

ومع قسوة عبودية العصور البدائية والحديثة على السواء، إلا أن عبودية القرن العشرين وما بعده ربما كانت أقسى أنواع العبودية في التاريخ. إذ خلافاً لعبودية الزمن القديم، يعيش عبيدُ اليوم فقراء في زمن الوَفْرة، جهلاء في عصر العِلم، مُستعبدين في عصر الحرية، وأشقياء أمام ممثلي الله في الأرض الذين يتكلمون باسمه دون تفويض منه.

إن معظم الثروة التي تتمتع بها العائلات الثرية القديمة في كل مكان، ويملكها العبيد المحظوظون من حكام مستبدين في كل بقعة من بقاع الأرض، وتجار ورجال مال وأعمال فاسدين، ومثقفين خانوا أمانة

العهد، وتـنازلوا عن كرامتهم هي حصيلة الظلم والقهر والقـتل، واستغلال فقراء العالم واغتصاب نسائهم وأطفالهم عبر كل مراحل التاريخ.

13

الإنسان والحرية

يُقال دوماً لقد ولد الإنسان حراً، لكنه يعيش حياته مُقيَّداً على الرغم من إرادته. لكن الحقيقة هي خلاف ذلك تماماً. إذ يولد الإنسان في حضن أمه، ويعيش سنوات حياته الأولى على حليبها، يرضع من ثدييها، ويعتمد في كل شيء تقريباً عليها. وهذا يجعله مقيداً لسنواتٍ تطول أحياناً، لا يمكنه خلالها أن يُحرِّر نفسه من إملاءات الغير، ولا من ظروفِ حياة أمه، ولا من مشاغلها اليومية وتقلباتها النفسية. وفي الواقع، حين يولد الإنسان لا يكون له خيار في العائلة التي يولد فيها، ولا في البيت أو المكان الذي يولد فيه، ولا في المجتمع والدين والثقافة التي يولد فيها، فهذه أمور تتحكم في حياته ومواقفه من دون أن يكون له أي خيار.

وحين ينمو الإنسان ويكبر، ينمو ضمن تقاليدَ عائلية وعادات وقيم ثقافية سبقت ميلاده بكثير، ويكون عليه أن يتكيف مع ظروف حياة تختلف كلَّ الاختلاف عن ظروفِ حياته الأولى، وظروف اجتماعية وطبيعية لا تخضع لإرادته. كما أنه يجد نفسَه ينتمي لثقافة ذات طبيعة دينية أو سياسية أو دنيوية تطورت تجاوبا مع تقلبات طبيعية عديدة، وتطورات تاريخية كثيرة جدا يصعُب حصرها، وحروب لم تتوقف عبر التاريخ. وهذا يفرض على الإنسان أن يحترم تقاليد مجتمعه وعاداته، وأن يراعي تعاليم عقيدته، وأن يتكيف مع معطيات وتحديات بيئته المحيطة به، الثقافية منها وغير الثقافية. نتيجة لذلك يتبنى كل إنسان مواقف محددة، ويتشرب عاداتٍ وتقاليدَ وطرقَ تفكير لم تكن يوماً من صنعه أو اختياره، ولم تُصمم تجاوباً مع رغباته واحتياجاته، مما يجعلها تتناقض أحيانا مع متطلبات سعادته ونجاحه في الحياة والعمل.

وفي المقابل، تولد الحرية بعد ميلاد الإنسان بسنوات، وليس معه أو في رأسه أو في قلبه. إذ لا تزيد الحرية كثيراً على كونها أداة عمل سياسية، وإطارَ تعايش مجتمعياً طوَّره الإنسان عبر تاريخه الطويل بهدف خدمة مصالحه، وتحقيق مآربه، وتعزيز إنسانيته واستقلاله، ما يجعلها تقليداً مجتمعياً خاصاً، له مجالاته وحدوده، فضاءَاته وقيوده التي يصعب تجاوزها. وهذا يجعل الحرية في الواقع نوعاً مميزاً من الأجواء النفسية والمساقات الفكرية وأطر العمل المجتمعية التي لا تروق لكل نفسٍ بشرية بالدرجة نفسها من الارتياح، ولا يتمتع بها كل من يعيش في ظلالها من الناس بالدرجة نفسها من الشغف والسعادة. ولما كانت الحرية ثمرةً من ثمرات تطور الحياة البشرية عبر التاريخ، وأن كل المجتمعات الإنسانية أسهمت في

تطويرها بدرجات متفاوتة، فإن عوائدها لا تتوزع على كل أفراد المجتمع الذي يمارسها بالتساوي، مما يجعل فضاءاتها وقيودها تتسع في بعض الأماكن والأحيان، وتضيق في أماكنَ وأحيانٍ أخرى.

إن من طبيعة المتعلم والذكي والقوي من الناس أن يكون أكثرَ وعياً من غيره من أفراد المجتمع، الأمر الذي يجعله في وضع أفضل بكثير من وضع الضعيف والجاهل والإنسان البسيط، بإمكانه تحرير نفسه من قيود مجتمعه ومحددات ثقافته التقليدية، والتحليق في أجواء الحرية والتمتع بعوائدها وفضاءاتها المثيرة. وهذا يُمكِّن القوي والذكي والمتعلم والثري من توسعة آفاق الحرية أمامه، وتسخيرها لخدمة أهدافه الخاصة، أحياناً على حساب غيره من الناس والبيئة. ولما كانت الحرية محدودةً بطبيعتها، فإن بإمكان الفئات الاجتماعية ذات النفوذ والسطوة والعلم أن تحصُل على نصيب الأسد مما يتوفر منها في كل مجتمع، واستخدام قيودها إذا شاءت لتحديد حُريات غيرها من الناس ومصادرة حقوقهم، وذلك كما هو الحال اليوم في أمريكا والدول النامية عامة.

الحرية إذن خُلقت وتطورت بفعل الإنسان، ولم تكن منحة من الطبيعة، أو من الله، ما يجعلها مخلوقاً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً من صنع الإنسان وليس من أحشائه. وذلك يجعل الحرية الجائزة الكبرى التي يحصُل الإنسان عليها بعَرق جبينه، بفكره الخلّاق ووعيه السليم، وإصراره الذي لا يَعرف الكلل، أو الملل على أن يكون حراً. لذلك، فيما تتمتع بعض الشعوب بالحرية، تعيش شعوب أخرى كثيرة في فضاءات ثقافية وسياسية واجتماعية لا تتوفر فيها الحرية، إلا حرية الحُكام والمتنفذين من الأقوياء والأثرياء في استباحة حقوق الفقراء والضعفاء والبسطاء من الناس. وهذا يعني أن الحرية لا تُولد مع الإنسان، ولا ترى النور إلا من خلال قيام الإنسان بإعادة هيكلة واقع حياته بكل معطيات ذلك الواقع العقائدية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وإعادة النظر المستمرة في صلاحية القوانين المجتمعية وشرعيتها، وتقييم مخاطر التقاليد الثقافية وسلبيات القيود الأيديولوجية التي تكبِّل حرية الإنسان، وتحُدُّ من قدراته الخلّاقة على الإنتاج والإبداع والخيال.

14

الفقر والحرية

الفقر هو **الشعور بحاجة لشيء مهمّ يفتقده الإنسان،** والإحساس في الوقت ذاته بأن الحياة لا تكتمل، ولا تكون عادية ومريحة ما دام الشيء المفقود غائباً عنها. ومع أن أغلبية الناس تعتقد أن الفقر يعني الفقرَ المادّي مثل المال والغذاء والملابس، إلا أن للفقر أوجُهاً متعددة، وإن جميع أوجُهِ الفقر تَحرِم الإنسان الفقير من حقٍّ أو أكثر من حقوقه الأساسية. فالإنسان الذي يفقد حقاً من حقوقه يجد نفسَه مضطراً للسعي لاستعادة ما يعود إليه من حقوق مفقودة، أو القبول بالفقر والحِرمان والاستكانة للظلم. لكن فُقدان الحرية ربما كان أكثر الأمور ظلماً؛ لأنه يُقلص قدرة الإنسان على استعادة حقوقهِ الأخرى، كما يقلص قدرته على فعلِ ما يحتاج، أو يتمنى أن يفعله في ظلِّ ظروفٍ حياتية عادية.

ولمَّا كانت الحرية حقاً من حقوق الإنسان الأساسية التي طوَّرها بنضاله عبر تاريخ طويل لم يتوقف يوماً عن التحول، فإن غيابها ينتقص من إنسانية الإنسان، بغضّ النظر عن خلفيته الثقافية وأحواله المادية ومكانته الاجتماعية ومستوياته التعليمية والثقافية. كما أن الفقر كثيراً ما يُكبِّل طاقات الإنسان العقلية والبشرية؛ لأنه يستهلك الكثير من وقته في التفكير في كيفية الحصول على ما يحتاج إليه من أشياء مادية وغير مادية، قد لا يكون بالإمكان البقاء حياً أو العيش حياة كريمة من دونها. وفي الواقع، كلُّ قرار سُلطوي، وموقف اجتماعي تقليدي، وقيمة ثقافية، وظرف حياتي يتسبب في تحديد حرية الإنسان الفكرية أو العملية يحكم عليه بالفقر المادي أو العلمي أو الروحي، ويُحوِّله إلى إنسان ناقص، لا يستطيع أن يفعل ما يريد، ويقول ما يريد، ويتصرف كما يريد. لذلك لا يجوز أن يتمتع بعض الناس والشعوب بالحرية، بينما يُحرَم الكثيرون منها، لأن فقدان الحرية في مكانٍ يفتح المجال لعودة الظلم إلى كل مكان.

ومع أن الفقر المادي هو أكثرُ أوجُهِ الفقر شيوعاً في العالم، إلا أن الفقر المادي هذا كثيراً ما يكون نتيجة لظروف حياتيةٍ تَحرِم الفقير من أسبابِ تجاوز حواجز الفقر وكسبِ قوت يومه بعرَق جبينه، مما يجعل الفقر المادي مَظهرا من مظاهر حياةٍ يسودها الظلم. وهذا يعني أنه من الممكن أن يأتي الفقرُ على شكل حاجة وُجودية، حين يشعر الإنسان بأن حريته مكبوتة، وحقوقه مُغتَصَبة، وأنه محروم من ممارسة الحياة السياسية والاقتصادية كما يجب؛ كما أن من الممكن أن يأتي الفقر على شكل حاجة رُوحانية حين

يُحرم الإنسان من إقامة الشعائر الدينية التي يؤمن بها، أو التحرر من العادات والتقاليد الاجتماعية التي نشأ عليها، أو ممارسة النشاط الذي يناسب مواهبه وهِواياته. ولمَّا كانت الحاجة المادية، شأنها شأن الحاجة الروحية والفكرية والنفسية، تحُدُّ من طاقة الإنسان على الفعل والإنتاج، فإنها تتسبب في تكبيل عقله وخياله، وإضعاف إمكاناتهِ على العطاء والإبداع. وهذا يعني أن كل فعل أو حدَث أو ظرفٍ حياتي يسلب الإنسان حقاً من حقوقه يعدّ سبباً من أسباب الفقر، وأن إنسانية الإنسان لا تكتمل إلا حين يتحرَّر من الفقر والحاجة بكل صورها وأشكالها، والقضاء على مسبباتها والظروف التي تغذيها.

ولما كان الإنسان هو هدفَ العمليات التنموية المجتمعية وأداتَها الرئيسية والمستفيد الأول منها، فإن تنمية رأس مال بشري قادر على أخذ زمام المبادرة ورسم خطط تنموية وطنية وترجمتها إلى حقائق على أرض الواقع، يصبح أهم شيء يحتاجه كل مجتمع نامٍ. في المقابل، إن إخفاق المجتمع ونظامَ الحكم والتعليم فيه في تنمية رأس مال اجتماعي قادر على قيادة العملية التنموية من شأنه أن يضمن فقرَ المجتمع من كافة النواحي، بما في ذلك غياب الثقة بين أفراده ومؤسساته. وبينما يتسبب فقرُ التعليم في جعل الإنسان فقيراً من النواحي العِلمية، وغير قادر على وعي ما لديه من إمكانات عقلية، وقدرات خلَّاقة، وفرص متاحة، يتسبب غياب رأس المال الاجتماعي في ضعف الوعي الصحي والثقافي والتكنولوجي والاقتصادي العام، وشيوع الظلم والفساد في المجتمع على نطاق واسع. وحين ينتشر فقر التعليم وتغيبُ الثقة التي هي وجه من أوجُهِ رأس المال الاجتماعي، فإن المجتمع يصبح ضعيف القدرة على العمل والإنتاج ومواجهة التحديات بثقة وكفاءة، فيما يصبح الإنسان ضعيفَ القدرة على التمتع بالعمل والحياة.

ومع فشل المجتمع وإخفاقه في توفير ما يحتاج إليه من أشياء مادية وغير مادية، يصبح من شبه المؤكد انتشار الفقر بكلّ أشكاله، وتراجع إمكانات التنمية واحتمالات التحرر واللَّحاق بالعصر. وفي الواقع، حين تغيب شمس الحرية عن مجتمع ما، فإن إمكانات التنمية المجتمعية تغيب عن حياته كذلك، مما يجعل من السهل أن تسود العبودية بأشكالها المتعددة، وأن يختفي الأمل عن الأنظار، وأن يعُم الإحباط واليأس والتواكل. ومع أن الأثرياء والأقوياء يستولون في ظل ظروف كهذه على معظم ثروات المجتمع، إلا أنهم، وبسبب استيلائهم على حقوق غيرهم من الناس وإفقار شعوبهم، يجدون أنفسهم في حالةِ خوف وقلقٍ شبهِ دائم، يشعرون أحياناً بتعذيبِ الضمير، ويشعرون غالباً بعَدم الاستقرار والطمأنينة، ما يعني أنهم يصبحون أثرياء من النواحي المادية، ولكن فقراء من النواحي النفسية والروحية والأخلاقية.

15

الحرية والديمقراطية

يعتقد أغلب الناس أن الحرية تـقود دوماً إلى الديمقراطية، لأن الحرية تجعل المواطن أكثر وعياً بحقوقه وواجباته، وتدفعه بالتالي إلى المطالبة بحقوقه، ومنها حق المشاركة في العملية السياسية وصولاً إلى سيادة القانون وتأسيس الديمقراطية في المجتمع. لكن التجارب التاريخية للعديد من الشعوب لا تؤكد هذا الرأي، بل تـتـناقض معه أحياناً، لأنَّ شيوع الحرية كثيراً ما يدفع الناس إلى الانصراف عن المطالبة بالديمقراطية، والمشاركة في العملية السياسية، والتركيز بدلاً من ذلك على الكسب المادي والتمتع بالحياة. وهذا من شأنه أن يقود الناس إلى تـناسي قضية الديمقراطية على الأقل مؤقتاً، واعتبارها قضية مؤجلة، مما يجعلهم يتعودون على الحياة في غيابها، وعدم الشعور بفقدانها. وحيث إن ما لا يشعر الإنسان بفقدانه لا يشعر عادة بالحاجة إليه، فإن الإنسان قلما لجأ إلى المطالبة بما يمكن العيش من دونه، خاصة إذا شعر بأنَّ الثمنَ المطلوب للحصول عليه من الممكن أن يكون باهظَ التكاليف.

إن تذكير الناس بالديمقراطية وحاجتهم إليها، ودفعهم نحو المطالبة بها هي تصرفات تصدُر عادة عن القوى الاجتماعية التي ترى أن من مصلحتها، أو من واجبها القيام بتلك المهمة، وهذه قوى تمثل الناشطين في المجتمع من مفكرين ومثقفين وإعلاميين ملتزمين بقضايا الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية. لكن تلك القوى كثيراً ما ترى أن مصلحتها تُملي عليها عدمَ تذكير الناس بالديمقراطية، وذلك حين تكون هي جزءاً من العملية السياسية أو العملية الاجتماعية الثقافية المهيمنة على حياة المجتمع، أو أنها من الفئات الاجتماعية المشاركة في صُنع القرار باسم الشعب من دون أن تـتحمل مسؤولية ما تتخذه من قرارات، أو حين تشعر بأن احتمال خضوعها لمساءلة شعبية ضعيفة للغاية.

إن من طبيعة الديمقراطية أن تجعل عملية صنع القرار عملية معقَّدة، تَسمَح بمشاركة العديد من القوى الاجتماعية والاقـتصادية في اتخاذ القرارات المصيرية، وهذا لا يروق عادة للنخب الحاكمة، لأن من شأن المشاركة الجماهيرية في العملية السياسية أن يَحرم تلك النُّخبَ من سلطة اتخاذ القرارات من دون رقابة، وتقليل هامش الحرية الذي تـتمتع به للتلاعب في الرأي العام والعملية السياسية والعملية الاقتصادية.

لكن انصراف الجماهير إلى التركيز على النشاطات الاقتصادية والربح المادي، والتمتع بالحياة تقود عادة إلى تشجيع المتنفذين من نُخب سياسية واقتصادية وإعلامية وثقافية على تسخير ما لديهم من إمكانات وثروات وسلطات لخدمة مصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة. وهذا من شأنه خلق ظروف تُغري المهيمنين على المجتمع على التصرف وكأنّ البلاد التي يقومون بإدارتها ليست سوى مزارع خاصة لهم، وأن من يعيش عليها من الناس ليسوا إلا عَبيداً أو مستخدمين لديهم، عليهم واجبات كثيرة من دون أن يكون لهم حقوق موازية من حيث الحجم والقيمة والأهمية. وفي ضوء أوضاع سياسية واقتصادية كهذه، تتسع الفجوة بين الأثرياء والفقراء، وتتعثر عمليات التنمية والنهضة، وتصبح المنجزات المادية وغير المادية تقريباً حِكراً على النُّخب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المهيمنة على المجتمع، ومسخرة لخدمة مصالحهم الخاصة، غالباً على حساب مصالح المجتمع والفقراء منه بشكل خاص.

إن حدوث مثل هذه التطورات السلبية لا يمكن أن يتم أو يستقيم في ظل سيادة نظام ديمقراطي يتمتع المواطنون فيه بحقوق متساوية، ويشاركون في صُنع القرارات المصيرية بحرية. ويعود السبب الرئيسيُ في ذلك إلى كون المجتمع الديمقراطي مجتمعاً يتصف بالشفافية، وخضوع كل مسؤول فيه للمحاسبة من قِبَل ممثلي الشعب المنتخبين، ولأن من الصعب أن يتهرب مسؤولٌ من رقابة المؤسسات الإعلامية. إنَّ قيام مجموعات صغيرة بالسيطرة على الحُكم، وتسخير مقدرات الوطن، لتعزيز مواقعها الاجتماعية، وزيادة مكاسبها الفردية والنخبوية يتسبب في الأحوال العادية في ظهور حركة وعي جماهيرية مناهضة للحُكم والحُكام، تقودها نخبة ثقافية واعية وملتزمة، تحمل هموم الجماهير ولا تقبل بتوظيف المصلحة العامة لخدمة مصالح خاصة. وهذا من شأنه أن يقود إلى تغيير العلاقة بين السلطة والشعب، وحصول الجماهير على حقوقها بطرقٍ سلمية، أو لجوءِ النخب الحاكمة إلى استخدام العنف لكبت تطلعات الشعوب وحِرمانها من حقوقها لفترات قد تطول.

ولما كان الإنسان يتميز عن غيره من المخلوقات بنزعته الدائمة للحرية والتحرر من قِوى الاستغلال والعبودية والكبت، فإنه من غير المتوقع أن تستمرئ الجموع الشعبية حياة الذل والمهانة والإهمال طويلاُ، وذلك بقطع النظر عن ذرائع الكبْت وأدوات القهر والحِرمان. وهذا يؤدي في المدى الطويل إلى زيادة درجة الوعي الجماهيري بالحقوق المُغتَصَبة، ويدفع المواطنين إلى تنظيم أنفسهم والتوجه نحو المطالبة بحقوقهم ومساءلة المسؤولين عن تصرفاتهم، وربما محاسبتهم أيضاً، ما يُمهّد الطريق إلى قيام نظام حكم ديمقراطي وعادل بديل.

إن سيادة نُظم الحكم الديمقراطية وما ينبُع منها ويترتب عليها من مساءلة شعبية وقانونية ومؤسساتية هي بمثابة صمام الأمان الذي يحمي حقوق الشعب من الانتهاك، ويصونُ المصلحة العامة من الاستغلال، ويضمن الحرية للمواطنين كافة، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

16

الحرية والتقدم

بالعودة إلى الماضي والتمعن في عِبَر التاريخ وصفحاته، نجد أنه ليس بإمكان نظامِ حكم سياسي أن يدوم طويلاً مهما ملك من أسباب القوة والشرعية الدينية أو الجماهيرية إلا إذا قام بتطوير نظام قِيم أخلاقيّ يحدِّد المسؤوليات والحقوق، ونظام قانونيّ يعترف بحقوق الناس على أساس المساواة، وقام بتطبيق القانون بشكل يحمي حقوق المواطنين من عَبث رجال النظام وأصحاب المال والسطوة. إن النظام الذي يفشَل في ضمان حقوق الناس لسبب أو لآخر، لا يكون بإمكانه أن يحتفظ بشرعيته ومكانته بين الشعب، ما يضطره إلى التنازل عن الحكم، أو اللجوء إلى قمع المواطنين وإرهابهم، والاعتداء على كرامتهم وحرمانهم من حرياتهم. ومن أجل تأكيد سطوته وتكريس نظام حُكمه، فإن الحاكم المستبد يلجأ عادة إلى استخدام العنفِ ضدَّ المواطنين الذين يُفترَض أنه يقوم بخِدمتهم والسهر على مصالحهم وحمايةِ حقوقهم، وضمان أمنهم.

وفي ظل ظروفٍ حياتية يسودها العنف والكبت والإرهاب والاستبداد، يصبح من الطبيعي أن تسود أجواء الخوف والرهبة والكذب والدجل والنفاق والفساد والتخبّط في المجتمع. وهذا يتسبِّب في كل الحالات والأحيان في حرمان المفكرين والمثقفين من فرص التفكير والتعبير عن آرائهم بحُرية، ونشر ما يتوصلون إليه من نتائج في وسائل الإعلام الجماهيرية. ومع أن أنظمة البطش والاستبداد اختفت من كل دول العالم تقريباً، بما في ذلك دول أكثر جهلاً وفقراً وتخلفاً من النواحي العلمية والاقتصادية من البلاد العربية، مثل جواتيمالا وكولومبيا والفلبين وبانغلادش، إلا أن نظم الاستبداد ما تزال مزدهرة تعيش في نعيم في البلاد العربية. ويعود السبب في هذا أساساً إلى تخلف الثقافة العربية، وجنون السلطة الذي يسكن قادة الدول العربية عامة، واتجاه دول الغرب الاستعمارية وأعداء الأمة العربية إلى دعم تلك الأنظمة بالمال أحياناً، وبالسلاح أحياناً أخرى، وبالمعلومات الاستخباراتية التي تساعدهم على ملاحقة أحرار الأمة، وإسكات كل صوت وقلمٍ حُرٍّ. كما أن تنامي التطرف الديني في أوساط عامة الشعوب العربية، وتوجُّهَ الكثير من الناس إلى الاتكالية جعَل من السهل الانصياع لأوامر أنظمة حكم بعضُها قاصر، وبعضُها فاسد، وجميعُها مستبد، لا تحترم عقول المواطنين ولا إنسانيتهم، ولا تحرص على حقوقهم أو أمنهم.

إن غياب حرية الفكر والرأي والعمل من ناحية، ولجوء أنظمة الحكم المستبدة إلى كبت المواطنين وقهرهم، وملاحقة الناشطين السياسيين والاجتماعيين من ناحية ثانية، يجعل من غير الممكن حدوث ما تـتمناه عامة الناس من تحرر وتطور، وما ينتظره الفقراء والضعفاء من تقدم وعدالة. وتشير التجربة الإنسانية عبر تاريخها الطويل إلى أن كل تطور مجتمعي حدَث في الماضي جاء في ظلِّ أجواء سادها قدر معقول من الحرية، إما بسبب قيام الحُكام بدعم حركة التفكير والتدوين والاختراع، أو بسبب وجودِ جُيوب سكانية ومدن تجارية تشكل مراكزَ حرفية ومالية، بعيدة عن المركز السياسي وغير خاضعة بشكل مباشر لهيمـنـته. ولمَّا كان العامل الاقتصادي من أهم القِوى المحرِّكة للتاريخ، فإن تلك المدن والتجمعات البشرية وجدت أن الظروف مُواتية للاهتمام بمصالحها وإهمال تعليماتِ الدولة والمؤسسة الدينية على السواء.

ومن أمثلة ذلك توجُّهُ بعض الحكام العَرب إلى تشجيع الحركة العِلمية والأدبية خلال فترة خلافة العباسيين ووجود العرب في الأندلس، وظهور نموذج المدينة - الدولة في إيطاليا في بدايات عصر النهضة. إذ إن ضعف الدولة المركزية في بلدان أوروبا عامة في ذلك الزمن، وعدمَ وجود جيش وشرطة لدى المؤسسة الدينية، جعل بإمكان بعض المدن أن تـتحرر من سلطة الدولة والكنيسة على السواء، وأن تـتبنى نمطاً حياتياً مختلفاً عن المألوف، وأن تفكر بشكل مختلف، وأن تمارس نشاطات اقـتصادية ومالية لم تكن مُتاحة لغيرهم من سُكان المناطق الأخرى. وفي ظلِّ أجواء الحُرية التي سادت المدينة - الدولة، نشطت الحركة التجارية وحركة الإقراض المالية، والحركة الحِرفية والفنية والفلسفية، ما أدَّى إلى شيوع مَثل يقول **"إن هواء المدينة يجعل الناس أحراراً"**، ولذلك وصف أحد المؤرخين نظام تلك المدينة بأنه: **"نظام من التجار وبالتّجار ومن أجل التجار"**، ما جعل السعيَ لتحقيق مصالح ذاتية يخدُم قضية الحرية والتقدم.

إنّ الحرية تمكِّن الإنسان من التفكير والتعبير عن رأيه من دون خوف، وفعل ما يريد أن يفعله من دون رهبة، واكتشاف مواهبِهِ الكامنة وقدراته الخلَّاقة بسهولة، والاتجاه نحو ممارسة ما يروق لها من نشاطات علمية وثقافية وفنية واقتصادية خدمةً لمصالحه الذاتية ومصالح المجتمع الذي ينتمي إليه بوجه عام. لذلك قال الفيلسوف الألماني **جورج هيجل** "إن الحرية هي روح التاريخ"، فيما قال كارل ماركس إن الصراع الطبقي بين الفقراء والأثرياء هو روح التاريخ. وبناء على أطروحة هيجل الفلسفية، يمكن القول إن مطلب الحرية يدفع الناس إلى خوض المعارك والحروب والتضحية أحياناً بحياتهم من أجله، مما يجعل السعي للحصول على الحرية والتمتع بها هو القوة الرئيسية المحرِّكة للتاريخ الإنساني.

أما فيما يتعلق بموقف كارل ماركس وأفكاره الفلسفية، فإن سعي الفقراء للحصول على حقوقهم من شأنه أن يدفعهم إلى خوض المعارك والحروب ضد الأثرياء الذين يقومون عادة باستغلال الفقراء والإثراء

على حسابهم، ما يجعل الصراع الطبقي هو القوة الرئيسية المحركة للتاريخ. لذلك يمكن القول إنه فيما تُعتبر الحرية هي روحَ التاريخ بالنسبة لهيجل، تعتبر العدالة الاجتماعية هي روح التاريخ بالنسبة لكارل ماركس، علماً بأن كلاً من هجيل وماركس لم يعطِ الدين والإيمان العقائدي ما يستحق من أهمية في تشكيل الثقافات الوطنية، وتحريك التاريخ وتوجيه حركتهِ.

17

رحلة الحياة

الحياة بالنسبة للإنسان رحلة بلا مستقبل... إنها رحلة في المجهول قد تكون طويلة، وقد تكون قصيرة، كما أنها قد تكون مثيرة أو مُملة، منتجة أو غير منتجة، هادئة أو عبثية بلا معنى أو هدف. لكن الحياة تكون في كل الحالات والأحيان مجردَ حدثٍ طارئ في حياة الطبيعة، مصيرُه الزوال. مع ذلك، تعطي كل حياة صاحبها من البشر الكثير من الملذات والأحزان والأشواق، لكنها تأخُذ منه كل شيء متى شاءت، وتذهب في سبيلها عبرَ المجهول، إنها ذلك المَلاك الذي يَسْحَر الإنسان في البداية، ويمنحه الكثير من الحب، لكنه يسلبُ الروح منه في النهاية ويتركه جسداً مُفرَّغاً من الحياة لا فائدة له. وفيما تبدأ الحياة يوم يولد الإنسان، وتَمنح كل من يكون حوله من الأهل والأحبة فرحة مميزة، إلا أنها تسلب البسمة من عيون الأهل والأحبة في النهاية. وفيما يذرف البعض دمعة الحزن يوم الوداع، تذرف الحياة دمعة غِواية كي تُذكرهم بأنها فرصة لا تتكرر، عليهم أن يتمتعوا بها بقدر الإمكان.

الحياة قوة مستبدة، لا تعترف بطفولة أو رجولة أو أمومة أو مستقبل، تَفرض على كل إنسان اسمَه، وتحدد له أبويه، ولونَ عينيه وشعره، وطوله وشكله، وفيما إذا كان له إخوة أو أخوات وتحدِّدُ أسماءهم، كما تحدد له ظروف معيشته في البداية. إنها مثل مركبة فضائية تأتي من حيث لا يدري الإنسان، فتنقل إليه الحُب والأمراض والمفاجآت والصّدف من دون علم مسبق، وتتصرف غالباً بمنطق بعيد عن المنطق، مما يجعل الإنسان ضعيف القدرة على تكييفها. لكن الحياة ليست قدراً لا يمكن تغيير أي جزء منه أو تطويعه لإرادة الإنسان، بل هي عملية تتصارع في داخلها قوى ذات أهداف مختلفة ومتضاربة في الكثير من تفاصيلها، ما يجعل بإمكان الإنسان أن يتحكم في العديد من تفاصيلها والتأثير في توجهاتها وتحولاتها. لكن التحكم في بعض تفاصيل الحياة وصُنع المستقبل يحتاج لوعي ومعرفة وإرادة، كما يحتاج لنظم مجتمعية تَسمح بحرية الفكر والرأي والفعل.

إن الاستسلام للحياة بوصفها قدراً حتمياً هو أمر يسلب الإنسان إرادة التغيير، وأحياناً إرادة الحياة نفسها، ويتسبب في كل الأحوال في تراجع قدراته على التأمل وحتى الرغبة في التفكير. ومع أن التواكل يريح العقل من عناء التفكير والتحليل والتدبير، إلا أن التعود على التواكل يُلغي حاجة الإنسان لعقل يفكر.

ومع تراجع قدرة الإنسان على التفكير في أمور حياته والقيام بإدارتها، فإن ما يكون قد تبقى لدى الإنسان من عقل يجدُ نفسه مضطراً لتفسير الأحداث التي تقع والتحديات الحياتية التي تواجهه بوصفها قدراً ليس بالإمكان تغييره، وهذا يدفعه عادة إلى لوم الآخر بسبب الفشل الذاتي. وفي الواقع، يتصف العقل الاستسلامي التواكلي، كما هو حال العقل العربي عامة، بكونه عقلا قاصرًا يحسن التبرير، ويسيء التحليل والتقدير، ويعجز عن التدبير.

إن بإمكان كل إنسان واعٍ أن يثور على معطيات حياته وظروفها، وأن يعيد تشكيل تلك الحياة بطريقة تسمح له بأن يعيش فترة أطول، وأن يتمتع بحياتهِ بقدر أكبر، ومغادرة الحياة في نهاية المطاف وقد ترك خلفه تراثاً يحكي حكاية كفاحه مع الحياة وإنجازاته على الرغم منها. لكن عملية تدريب الإنسان على الوعي ليست سهلة، إذ تحتاج لتربية غير تقليدية في البيت، ومدارس ونظم تعليم علمية توفر للطلبة فرص الاطلاع على أفكار مختلفة من إنتاج شعوب متباعدة ذات أهداف وثقافات متباينة. كما تحتاج عملية التوعية هذه إلى إرادة شعبية ترى أن توعية الناس تصب في مصلحة الفرد والمجتمع والنخبة الحاكمة والوطن والإنسانية جمعاء، وهذا أمر يتنافى مع أهداف كل أيديولوجية دينية وغير دينية، وكل نظام حكم سلطوي مستبد. إذ تـتجه كل أيديولوجية حين تهيمن على حياة مجتمع من المجتمعات إلى العمل على إقناع أتباعها بأفكار ومقولات وحتميات تُـقيد حرياتهم كثيراً، وتقلص قدراتهم على التفكير، وتَفرض عليهم أنماطاً سلوكية تحرمهم من فرص اتخاذ مواقف مستقلة لا تنسجم بالضرورة مع رغبات قادة الأيديولوجية المعنية.

إن إيمان القادة الأيديولوجيين برسالة الأيديولوجية التي يحملونها في صدورهم، والنظر إلى أنفسهم بوصفهم الأمناء على تلك الرسالة والمسؤولين مسؤولية مباشرة عن صيانـتها ونشرها بين الناس، يدفعهم في معظم الحالات والأحيان إلى احتكار المعرفة المتعلقة بتلك الأيديولوجية، وعدم السماح لغيرهم بالتفكير خارج أطر الأيديولوجية، وأحيانا داخلها أيضاً. لذلك يتجه القادة الأيديولوجيين عادة إلى سنّ قوانين تحدد حريات المواطنين، والترويج لأفكار وإشاعات تستهدف تخويف عامة الناس وتزييف وعيهم، وضمان الهيمنة على زمام الأمور في المجتمع، والتحكم في مصيره ومصير كل من يعيش فيه من البشر. وهذا يجعل كل أيديولوجية عدواً لدوداً للوعي والحرية، وأداة لإغلاق العقل الإنساني، ومنظومة قيمية تتشكل من أوامر ونواهٍ تشجع التابع على التواكل، وتلغي حاجته للتفكير، وتُحوله إلى أداة قابلة للاستخدام بطرق شتى، للدفاع عن الأيديولوجية وقادتها أحياناً، وارتكاب الجرائم باسمها أحياناً أخرى. لكن حين يتوقف عقل الإنسان عن التفكير في الأفعال والعواقب المحتملة، فإن مستقبل الإنسان المعنيّ والمجتمع الذي يعيش فيه وينـتمي إليه يصبح عرضة لكلّ الأخطاء والمخاطر والآفات والمصائب.

18

الخوف والحياة

الخوف شقيق الموت، كلاهما عدو الحياة والإنسان

الخوف هو موت الحياة على مراحلَ تكون في معظم الأحيان مؤلمة، ما يجعل الخوف والألم لا ينتهي إلا حين تنتهي الحياة ويُدفن جسد الإنسان في قبر، ويتوارى تحت التراب. مع ذلك، من الممكن أن ينتقل الخوف من جيل إلى جيل إذا كان موت الأب أو الأمّ أو الجد أو الأخ أو الأخت جاء بسبب مرض مُعْدٍ، أو وراثي أو ما شابه ذلك من أمور. وهذا يعني أن الخوف يستمر بوصفه جزءاً أساسياً من حياة الإنسان وعناء الحياة، يؤثر فيها ويلوّنها بألوان مختلفة، ويتحكم أحياناً في قرارات الإنسان المصيرية. أما الموت فيَخطف الروح من الجسد بسرعة متى أراد، ويقتل الحياة في لحظات، فيما يفرض على الروح أن تعيش وحيدة في مكان موحش، تنتظر عودة الجسد إليها يوم القيامة كي تعانقه وتستعيد معه الحياة، وعندها تبدأ الحياة رحلةً طويلة مع خوف جديدٍ رهيب انتظاراً لساعة الحساب والجزاء والعقاب.

في الحياة الدنيا، يقوم خوف الإنسان من التقاليد والعادات والقِيم المتوارثة بقتل جزء من القلب، وتعطيل جزء من العقل، ومصادرة جزء من حرية الجسد، فيما يقوم الخوفُ من السلطة السياسية بقتل جزءٍ من كرامة الإنسان، ومصادرة جزء من حرية العقل وقُدراته الخلّاقة على التفكير والإبداع. أما الخوف من الله فيقوم بقتل جزء من نَشوة الفرح، ومصادرة جُزء من لذة الحياة، واستبدالها بشعور من الندم، فيما يقوم التفكير في يوم القيامة والحساب والعقاب بقتل جزء من الليل، ومصادرة جزءٍ من الأحلام وتحويلها أحياناً إلى كوابيس قد تلاحق الإنسان حتى نهاية الحياة.

في البيت العربي المسلم، يتراءى الخوفُ للإنسان على شكل شَبَح يُهدد مستقبله، وربما مستقبل أبنائه وأحفاده من بعده؛ وفي الليل، يشعر الإنسان بالخوف يأتيه على شكل شهوة جنسية مكبوتة تُقلقه، وتسرق النوم من عينيه أحياناً؛ وفي الشارع يتبع الخوفُ الإنسان في صورة شرطي يتكلم باسم سُلطان جائر، أو واعظ يتكلم باسم دين حنيف لا يفهم منه إلا القليل. أما في المسجد، فإن الخوف يقف إماماً مُهيباً يتكلم باسم الله، ولا يتوقف عن التهديد والوعيد إلا بعد أن يفرض على الإنسان أن يَشكر كلَّ مَن صادر جزءاً من روحه وقلبه وعقله وجسَده وحُريته وكرامته، وقام بسرقة أحلامه، ويطلب الرحمة منهم جميعاً،

فكلهم مُصلحون فيما هو المجرمُ الأوحد. وهكذا تتحول حياة الخائف إلى مقبرة يعيش فيها حياة أبدية، ويتحول الوطن في ظلها إلى عاهرة تلاحقه أينما ذهَب، ويتحول الدين إلى شبخ مُخيفٍ لا يستطيع الإمساك به، أو تجنُّبَ الاحتكاك به، فيما يصبح الفقر والذل مَعاوِلَ يأس تجعل الحياة بلا أمل، والوجودَ بلا حياة.

ومن دون أن يَعي الإنسان عُمق ما يجري من حوله، تغدو حياة الخائف قاربَ موت معطوباً يُجدف في بحر هائج، تحيط به الحيتان من كل جانب، فيما تتوافد التماسيح تِباعاً على شكل رجال يحملون على صدورهم وأكتافهم نياشين ملونة، ورجال بعمائم وعباءات بِيض وسُود وخُضْر، طويلة وقصيرة، ونساء عاريات من العفة والكرامة، ينتظرون جميعاً غرق القارب، ليَنْهَشُوا جسداً قتلوا الروح فيه، وعذبوه طويلاً قبل وصوله إلى البحر.

وفي يوم القيامة، على افتراض أن الحياة الدنيا ستنتهي بعد 100 سنة، وأنَّ عدد مَن سيموت مِن البشر حتى اليوم الموعود يساوي ربع مَن مات منذ بدءِ الخليقة، فإنَّ عدد مَن سيتم بعثهم يوم الآخرة يكون نحو 100 بليون إنسان. وعلى افتراض أن محاسبة كل إنسان على ما فعَل في الحياة الدنيا ستستغرق ربعَ ساعة، فإنَّ معدل فترة الانتظار حتى يقف الإنسان أمام الله تتجاوز خمسمائة ألف يوم، أي نحو 1400 سنة. ولما كان يوم الآخرة يساوي ألف سنة من سنوات الدنيا، فإن فترة الانتظار، تبعاً لحسابات الدنيا، تكون نحو 1.4 مليون سنة. وكلما اقترب الإنسان خطوة من منصة الوقوف أمام الله، كلما غاصَ الخوفُ في أحشائه، وتسلل إلى خلايا خلاياه يُتلِفها الواحدةَ تلو الأخرى. لكن حين ينظر الإنسان إلى يمينه ويرى الجنةَ وحوارِيَها، فإن غريزة الجنس تثور في رأسه وتتسبب في تراكم الكبْت والخوف من الخطيئة في قلبه؛ لكن حين ينظر إلى يساره ويرى النارَ ولهيبها، فإنَّ جسده وقلبه يرتعدان من خوفٍ لا مثيل له. وبذلك يتكفل الخوف في قتل ما يكون قد تبقى لدى الإنسان من روح وقلبٍ ومشاعر قبل أن يصل إلى الجنة أو النار، ويتذوقَ طعمَ أيٍّ منها.

19

العقل وتحديات الحياة

إن العقل الإنساني يتطور من خلال التفاعل مع مكونات البيئة التي يعيش فيها وينشط من خلالها، وتشمل البيئة الإنسانية عناصرَ طبيعية وأخرى اجتماعية ثقافية، وثالثة علمية تكنولوجية. إذ يجد الإنسان نفسَه كلَّ يوم تقريباً أمام خيارات متعددة تُجبره على القيام بدراسة كل منها وتـقيـيم أهميتها، وتحليل أبعادها المجتمعية وتبعاتها المحتملة على حياته ومستقبله، وما يسعى إلى تحقيقه من أهداف في حياته. وفي ضوء ما يتوصل إليه الإنسان المعني من نتائج، يختار الأنسبَ، أو الأفضل، أو الأقل خسارةً من الخيارات المتاحة. وحين يخطئ الإنسان في الاختيار، فإنه يتعلم عادة من أخطائه، إذ يقوم العقل بتعديل طريقة دراسته للخيارات المتاحة وتقـيـيم التبعات المحتملة، ما يُضعف احتمالات الإخفاق، ويقوي احتمالات النجاح في المستقبل. ومع تـتابع التجارب الإنسانية وتجدد التحديات الحياتية وتكاثرها، تـتراكم المعارف لدى الإنسان، ويصبح بإمكانه الحُكم على بعض الخيارات بسهولة وسرعةٍ كبيرة نسبياً، وذلك بسبب تكرارها أو تشابهها مع غيرها من حالات سابقة. وهكذا يتطور العقل الإنساني من خلال ما يتعرض له من تجارب الصواب والخطأ، النجاح والإخفاق، وذلك على افتراض أن العقل المعنيّ يتمتع بحرية التفكير والقدرة على التفكير، ويملك الإنسانُ المعنيّ حرية الاختيار وقوة الإرادة.

ومع أن العقل البشري يسعى دوماً كي يكون حراً ومُبادراً وخلّاقاً، إلا أن معظم العقول ليست حُرة، وبالتالي لا تملك حرية التفكير، حتى لو كانت تملك القدرة على التفكير والإبداع. ويعود السبب في حرمان معظم العقول من حرية التفكير إلى عمليات البَرْمَجة التي تـقوم بها القيادات التقليدية والسُّلطوية والدينية والأيديولوجية عامة. إذ بينما تـقوم القيادات التقليدية بغرس تقاليد متآكلة ومتعفنة أحياناً في عقول الأطفال والصبيان والجهلاء من عامة الناس، بوصفها تراثاً شبه مقدس، تقوم القيادات الدينية بتربية أولئك الناس على الإيمان بأفكار دينية قديمة، وجامدة تدَّعي الأصالة والقدسية... أفكار تكون أحيانا بعيدة عن روح الدين ومخالفة لتعالميه. من ناحية ثانية، فيما تـقوم الأيديولوجيات العلمانية التي تدعي أنها تقوم على حتميات تاريخية بإعادة تشكيل قناعات أتباعها، وحشو عقولهم بما تروج له من أفكار عقيمة، تحاول القيادات السلطوية دوماً تخويفَ عامة الناس من تبعات التغيير باعتبار كل تغيير يَحمل معه مخاطرَ كبيرة، وإقناعهم بأنه ليس بالإمكان أفضلُ مما كان. أما هدف ما تـقوم به الأيديولوجيات عامة وأنظمة الحكم السلطوية من

أفعال فهو شلُّ قدرات العقول ولو مؤقتاً على التفكير، وذلك حتى يَتسنّى لها إحكامُ سيطرتِها على المجتمع، وتقليل احتمالات قيام معارضة واعية وفاعلة تحُدُّ من قدراتها على احتكار السلطة.

إن قيام القيادات التقليدية والدينية والأيديولوجية ببرمجة عقول أتباعها يَجعل كل عقل من تلك العقول يتحول إلى عقل ببغاء ذكية، تُردد ما تَسمع، من دون أن تفهم شيئاً مما تُردد، وتحويل عقول عامة الشعب إلى آلات مبرمَجة تلتزم بما يصلها من رسائلَ ومعلومات، ولا تـقوى على التفكير في فحوى تلك المعلومات والرسائل. وهذا من شأنه أن يحول الأتباع والجُهَلاء وعامة الشعب إلى أشخاص مسلوبِيْ الإرادة، يَسيرون خلفَ قيادات تـقليدية ودينية وحِزبية وسلطوية لا تـنوي لهم الخير، ولا تعمل لمصلحة شعب أو وطن، لأنها تميل إلى الاعتقاد أن مصلحة الوطن والشعب تأتي من خلال مصلحتها الخاصة. لذلك، ليس هناك جماعة أو أمة حُرِمَ مثقـفوها ومفكروها من حرية التفكير، وبرمجة عقول شبابها وشعوبها على ضرورة الحِفاظ على تقاليد قديمة متقادمة بوصفها تراثاً شبه مقدس، والإيمان بحتميات دينية وتاريخية لا يمكن التهرب منها، إلا وكانت أمة متخلفة من كل النواحي العِلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

حين تـتم برمجة العقل البشري على اتّباع أسلوب واحد في التعامل مع كل شيء في الحياة تقريباً، وذلك بناء على نصوص تراثية أو دينية أو أيديولوجية واضحة تـنبثق عنها أوامرٌ ونواهٍ وتقاليدُ محددة، فإن العقل يُحرم من حرية التحليق في عالم الخيال الواسع. نتيجة لذلك يُحرم ذلك العقل من فرص التعلم من تجارب النجاح والفشل، الصواب والخطأ، مما يجعله غيرَ قادر على التطور بالقدر المطلوب لمواجهة التحديات الحياتية المتغيرة والمتزايدة بشكل يومي. وهذا من شأنه أن يجعل الإنسان المعنيَّ مجردَ أداةٍ طيّعة في يد غيره من أصحاب القرار، لا يعرف معنى الحرية أو الاستقلال، ولا يرتاح لشيء سِوى التبعية للأسياد المُهيمنين على حياة المجتمع وفضاء الفكر والثقافة. وفي ظل تربية كهذه ينمو الفرد في المجتمع انقيادياً اتّكالياً، يقبل مرارة العيش والبُؤس، ويستأنس البطش والظلم، لا يفهم معنى الحرية، ولا يقوى على نقدِ نظام حياته، ولا يملك القدرة على التفكير الواعي في معطيات تلك الحياة، وكيفية التعامل معها بعقلانية وعلمية تعزِّز حريته، وتؤكد إنسانيته، وتصون كرامته.

وهذا يعني أن تـنمية أيّ مجتمع وتمكينه من الاستحواذ على الإمكانات البشرية والمادية التي تؤهله لتحقيق التقدم والنهضة توجب تربية الإنسان أولاً على الحرية والتفكير؛، وتحريره ثانياً من القيود الثقافية والاجتماعية التقليدية والنصوص العقائدية والحتميات الأيديولوجية والممارسات الاستبدادية السلطوية. كما توجب أيضاً توفير فُرص التعليم لجميع المواطنين، وتدريب كادر تعليمي يتصفُ بالكفاءة والأمانة والوعي الثقافي، ويحظى باحترام الطلبة وتقدير الأهالي وعناية مؤسسات المجتمع. ولمَّا كانت القدرات العقلية الفذَّة

والمواهب الخلَّاقة المبدعة نادرة بطبيعتها، فإن على المجتمع أن يقيم المؤسسات القادرة على اكتشاف ما لديه من عقولٍ ومواهبَ نادرة، وأن يعمل على تـنميتها ومـنحها ما تستحقه، وتحتاج إليه من دعم مادي وحرية وعناية وتشجيع.

20

الحياة ونهاية الحياة

الحياة طفلة بريئة تبدأ رحلتها من نُقطة تـقع في قلب فضاء دائري مغلق، لا تخرُج منه إلا بالتحرر من قيود ذلك الفضاء، والانطلاق إلى العيش في فضاء مفتوح تـتمتع فيه بالحرية وراحة البال. ومع أن كل إنسان يحاولُ الهروب من الدائرة المغلقة التي يولد فيها، إلا أن معظم الناس يخشون الضَّياع في الفضاء المفتوح، مما يجعلهم يتمسكون بقدر قليل أو كبير بقيود الفضاءِ المغلق وهوائه المعتق برائحة تقاليد وأعراف وقيم قديمة تُكبل قدرة الإنسان على التفكير بحرية، والتصرف بشجاعة وأمانة مع النفس والغير من الناس. فكل تقليد يصادر جزءاً من حرية وأمانة وشجاعة كل إنسان يملك القدرة على التفكير، ولديه الرغبة في التعبير عما يدور في رأسه وصدره من أفكار غير عادية ومشاعر جيّاشة. ومع تعدد مسارات الحياة وتباين درجة وُضوحها وقدراتها على العطاء، إلا أن كل مسار يختاره الإنسان، بغضّ النظر عن الاتجاه الذي يسير فيه وسرعته، هو تحرك في اتجاه خط النهاية... نهاية الحياة. وهذا يجعل كل خطوة يخطوها الإنسان في حياته تُقرّبه من الخط الوهمي الذي يَفصِل الحياة عن نهايةِ الحياة.

ولمّا كان من غير الممكن لأيّ إنسان أن يعيش حياته في وسط الدائرة المغلقة التي يولد فيها من دون أن يتحرك في مختلف الاتجاهات بسبب العمل والنمو، فإن خيار الإنسان الأفضل ليس الهروب من تلك الدائرة بمحاولة القفز من فوقها، وإنما باختيار فضاء لا يبعد كثيراً عنها... فضاء يتيح له فرصة التمتع بحياته وحريته. فالقفز فوق جدار حلقة الانتماء الأولى يعني في الكثير من الحالات الانتحار اجتماعيًا من دون سبب، ما يجعل الحياة تـتحول إلى نفق يستخدمه الإنسان للهروب من فضاءٍ لفضاءٍ جديد يقودُه من نفق لآخر. وهذا يعني أن من الأفضل أن يحاول الإنسان أن ينتقل من حلقة الانتماء الأولى متسللاً إلى فضاء أكثر انفتاحا يُمكّنه من التمتع بحياته والاقتراب من نهاية الحياة ببطءٍ شديد، أي البحث عن أكثر المسارات المؤدية إلى نهاية الحياة بُطئاً ومتعة والسير عليه بثبات وثقة. إن المسار الأكثرَ بطئاً هو المسار الذي يقوم على العِناية بالصحة الجسدية والنفسية **أولاً**، والتمتع بالحياة ونِعَمِها **ثانياً**، والانغماس في نشاطات إنتاجية واجتماعية وفكرية وعلمية تُغني الحياة **ثالثاً**، واختيار هواية تريحه من عناء الحياة رابعا، وهذه نشاطات تُثري الحياة من النواحي المادية والثقافية والروحية، وتحجبها عن التفكير فيما بعدَ الحياة من مخاوف، وتُبعدها عن كل شيء وفعل لا يُرضي النفس، ولا يُريح الضمير.

من ناحية ثانية، لو نظرنا إلى الناس من حولنا لوجدنا أنه من الصعب أن نرى إنساناً يضحك من قلبه، ويستمتع بوقته وعمله وأصدقائه فيما يسير مسرعاً في شارع طويل أو قصير. ومع أنّ السير بسرعة، بغض النظر عن اتجاه الطريق، يُقرِّب الإنسان من خط نهاية الحياة ويفسد متعها، إلا أن أغلب الناس تفضل السير بسرعة بسبب الجَشع والطمع والخوف من الحياة، أو نتيجة تهور يقوم على الجهل وضعف الوعي بمعطيات الحياة. وفيما ترتفع أصوات بعض الناس غاضبة بسببِ عدم تمكُّنهم من السير بالسرعة المرغوبة، أو بسبب وُجود ما يعترض طريقهم من موانعَ طبيعية، أو سياسية أو عقائدية أو ثقافية تقليدية، فإن قدرتهم على مواصلةِ السير بسرعة تتراجع باستمرار. وفيما يعكس الركض والصراخ غضباً لسبب أو آخر، إلا أن الغضب يقوم بقتل إحساس الإنسان الغاضب بمتعة الحياة ولذَّتها ورَوْنقها، فيما تقوم السرعة بتقريب خط النهاية يوماً بعد يوم. وهذا يقود الإنسان المعنيّ إلى نسيان نفسه، وإهمال صحته وأصدقائه وعائلته أحياناً، والعيش حياة يخيّم عليها الفقر المادي أو الأخلاقي أو الروحي، مما يجعله لا يعرف متعة النفس ولا راحة الضمير، ويموت قبل أن تُكمل الحياة رِحلتها التي جاءت مِن أجلها.

لذلك كان على الإنسان أن يدرك أن الحياة هي أثمنُ فرصة تمنحه إياها الطبيعة وعملية الخلق، ما يفرض عليه أن يقدرها حق قدرها، وأن يستغلها فيما يثري حياته وحياة من يعيش حوله من الناس. إن الفرصة التي تُولَد مع الحياة هي فرصة الإنسان الأولى والأخيرة كي يعيش حياة تليق بإنسانيته، تتيح له الاستمتاع بماله ووقته وأصدقائه، ورؤية كل شيء جميل ومثير في الطبيعة، وفي الناس على حقيقته.

وهذا يعني أن على الإنسان أن يقيم علاقات اجتماعية مع كل مَن يحب مِن البشر، وأن يُسهم في كل عمل مثمر وإنساني يكون باستطاعته الإسهام فيه، وأن يتعاطف معَ كل صديق في مِحنته، ويفرح معه في فرحته، وأن يمُدَّ يَدَ العون لكل فقير وضعيف ومحتاج سواء كانت الحاجة مادية او نفسية أو علمية، أو مجرد نصيحة تساعده على التفكير بشكل أكثرَ عقلانية وواقعية.

نعم، كل حياة تبدأ وتنتهي يوماً ما، لكن هناك من الناس مَن يعيش ويموت مِن دون أن يدرك معنى الحياة، ما يجعله يعيش حياته في عِداد الأموات، لا يتمتع بشيء يُذكر من عطاء الحياة، ولا يُنتج شيئاً ذا قيمة خلالها، ولا يترك خلفه تراثاً مكتوباً يستحق ان يُحفظ ويُدرس. وهناك مَن يعيش قروناً بعد موته فيما تهمس كلماته حنونة احياناً، وغاضبة أحياناً أخرى في أذنَيْ الحاكم والمحكوم، العالم والجاهل، الكريم والبخيل، القوي والضعيف، وتزود هؤلاء جميعاً بالعلم والحكمة والخبرة، وكيفية التعامل مع الحياة وتعقيداتها الكثيرة وتحدياتها المتزايدة باستمرار.

21

الحياة والمستقبل

إن كل إنسان يُدرك أنه لا يوجد شخص واحد معصوم عن الخطأ، لذا كان على كل إنسان يريد أن يتجنب الوقوع في أي خطأ أن لا يفعَل شيئاً مهماً في حياته. لكن كل إنسان لا يفعل شيئاً مهماً في حياته يحرم نفسه من تجربة النجاح والفشل، وما في تلك التجربتين من فرح وحزن، وألم وعِبَر، وبالتالي لا يعيش حياة ذات معنى تُعمق لديه الإحساس بإنسانيته. وإذا كان من الممكن أن يقع الخطأ حتى أثناء قيام الإنسان بأداء أعمال روتينية، كنسيان رَيّ بعض الورود والأشتال، فإن أكثر الأخطاء احتمالاً وإثارة للجدل تقع عادة حين ينظر البعض في عين المستقبل محاولين قراءته، وتحديد مساراته بهدف المشاركة في صُنعه.

إن التنبؤ بما يمكن أن يحدث في المستقبل أصبح عِلماً قائماً بذاته، يجذب الكثير من الناس إلى ممارسته؛ وهؤلاء أشخاص يتمتعون عادة بعلمٍ وفير وتجربةٍ حياتية ثرية، وقدرةٍ كبيرة على ملاحظة الأحداث غير العادية، والحرص على متابعة التطورات والتحولات التي يعيشُها الواقع. وفي ضوء أهمية المستقبل بالنسبة لحياة كل الأمم والشعوب ومكانتها الدولية، فإن قراءة المستقبل أصبحت أداة مهمة تستخدمها النخب الفكرية في كل دولة تقريباً لقراءة التحولات الحياتية، وتحديد التحديات التي يُحتمل أن تقع في المستقبل، وذلك من أجل الإعداد لمواجهتها بشكل جيد يَضمن تقليلَ مخاطرها، وتحقيق الاستفادة القصوى من الفرص التي تتيحها.

إن أغلب الناس يعتقد أن المشكلات لا تعود عليهم بشيء سوى الخسائر، لكن كل مشكلة تخلق فرصاً يمكن استغلالها بشكل إيجابي والاستفادة منها، لكن الاستفادة تحتاج لوعي وعلم وتجربة. ولما كان الوعي والعلم لا يتوفرانِ لجميع الناس، ولا حتى للنخب الحاكمة بالقدر الكافي لإدراك الفرص التي تطفو على السطح في خضم فوضى المشاكل والأزمات، فإن البعض يخسر، فيما يربح البعض الآخر.

من ناحية ثانية، تفرض قراءة المستقبل على المعنيين أن يقوموا أولاً بالتعرف إلى طبيعة ما يعيشه الواقع من تطورات عِلمية وتكنولوجية وتحولات ثقافية واجتماعية وتغيرات اقتصادية وسياسية أحيانا. والقيام ثانياً بتحديد العوامل المسؤولة عن حدوث تلك التحولات والتطورات، وتقييم دور كل عامل من عوامل التغير والتحول على حدة. وهذا هو ما يجعل بالإمكان التنبؤ بما يُحتمل أن يحدث في المستقبل، وبالتالي الإسهامَ في صنع ذلك المستقبل. وتتم عملية صنع المستقبل من خلال العمل على تسريع حركةِ بعض قوى التغيير، وإبطاء حركة البعض الآخر، والتأثير في اتجاهات التغير والتحول المجتمعي والعالمي بوجه عام. إن الأمم والشعوب الحية تقوم اليوم بقراءة المستقبل، ومراجعة توقعاتها بشكل دَوريّ منتظم،

وذلك من أجل أن تورث أبناءَها وأحفادَها من بَعدها اقتصاداً أقوى وأكثر تقدماً، وحياة أفضل وأكثرَ متعة وأمناً واستقراراً، ومستقبلاً أرحبَ وأكثر حرية وعطاءً.

إن ما ينطبق على الشعوب والأمم ينطبق على الأفراد والجماعات والمؤسسات أيضاً. لذلك نلاحظ اتجاه الجامعات نحو فتح تخصصات جديدة تعتقد أن المجتمع سيحتاج إليها في المستقبل القريب، كما نلاحظ أيضا أن الطالب يتجه لدراسة ما هو متوفر من علوم وتخصصاتٍ بناء على قراءةِ الواقع وتوجهات المستقبل، وليس بناء على ما كان سائداً في الماضي. وفي الواقع، ليس بإمكان أمةٍ أن تحافظ على حيويتها ومكانـتها بين الدول من دون قراءةِ المستقبل بشكل علمي وطريقة منـتظمة، وإنشاء مؤسسات متخصصة تـقوم بهذه المهمة، وتصرف الدولة المعنية بناء على ما تستخلصه تلك المؤسسات من نتائج. إن الخوف من الوقوع في الخطأ لا يُعفي أمةً من مسؤولية قراءة المستقبل وتحديد ملامحة، خاصة وأن العمل المؤسسي هو العمل الوحيدُ القادر على تحمل مسؤولية الخطأ، وبإمكانه أن يتعلم من تجاربه، وأن يصحّح أخطاءه، وأن يرفع مستوى أدائه بشكل منـتظم، وذلك خلافا للعمل الفردي.

وفي الواقع، فيما كان الناس ينظرون إلى المستقبل قبل عُقود بوصفه امتداداً للماضي، ما جعَل معظم النظريات والفلسفات التاريخية تـقوم بدعم هذه النظرة، وتؤكد هذه الطريقة في التفكير، إلا أن ما حدَث منذ منـتصف القرن العشرين من تحولات ثقافية واجتماعية وتطورات عِلمية وتكنولوجية واقـتصادية كبيرة وعميقة جعَل هذه النظرة وما ينبثق عنها من نظريات تغدو نظرة غير علمية. إذ فيما كان معظم الناس والشعوب والدول قبل عقود تخطط في سعيها لحياة أفضل على أساس تجاربِ الماضي وعِبَره، كان المستقبل يتحول إلى بُوصلة تـقوم بتوجيه حركة الحاضر وتحديد خياراتـنا الحياتية. وعلى سبيل المثال، أصبح أغلب الناس يختارون أماكن السكن، وفروع التخصص العلمية، والمشاريع الصناعية ليس بناء على ما كان شائعاً ورائجاً وشعبياً في الماضي القريب، وإنما بناء على توقعات المستقبل الذي يقـترب منا يوماً بعد يوم، ويعيد تشكيل واقع حياتـنا ومواقفنا وتطلعاتنا ونظرتـنا لكل الأمور الحياتية ساعة بعدَ ساعة.

22

الواقع الدولي والمستقبل

يحتاج التعرفُ إلى المستقبل إلى النظر في حال الماضي والحاضر وملامح المستقبل على السواء، وذلك لأن بعض تيارات التغيـير والثوابت الثقافية تبقى على حالها تقريباً، فيما يتغير كل شيء غير ذلك. ولمَّا كان من غير الممكن أن يعرف إنسانٌ ما يُخبِّئ المستقبل له من مفاجآت، فإن الرؤية المستقبلية تـتطلب تحديدَ طبيعة تيارات التغيير التي يعيشها الحاضر، والتعرف إلى توجهاتها ومدى سرعتها وتداخلها مع بعضها .

إن ما حدث في العالم من تطورات منذ حدوث ثورتَيْ المعلومات والاتصالات في ثمانينات القرن العشرين يشير إلى أن العالم دخَل مرحلة انتقال تاريخية توحي بأنَّ الإنسان في طريقهِ إلى مرحلة تطور حضارية جديدة مختلفة كلَّ الاختلاف عما سبقها من حضارات. ويعكس هذا الاختلاف نفسُه عادة بظهور مجتمع جديد ذي ثقافة مميزة، واقتصاد مميز، ونظم حياة جديدة تـقوم على أنقاض معظم ما كان قائماً وشائعاً في الماضي القريب من نظم وأنماط إنتاج اقتصادية وعناصر ثقافية. ومع انهيار الفكرة الماركسية وتفكك الاتحاد السوفييتي وانـتهاء الحرب الباردة في بداية التسعينات من القرن العشرين، واتّساع نطاق العولمة الاقـتصادية والثقافية، فإنَّ صلاحية معظم الأفكار والنظريات القديمة انتهت؛ الأمرالذي سبَّب حدوثَ حالة من الضياع وضبابية الرؤية بالنسبة للإنسان العادي وحتى العالم والمثقف. وفي ضوء ذلك، نلاحظ اندفاع شعوب ودول العالم إلى السير في ثلاثةِ اتجاهات متوازية لا تلتقي في آن واحد:

- تفكك العديد من الدول القديمة إلى وحدات سياسية صغيرة.
- تجمع العديد من الدول المتنافسة في اتحادات اقتصادية واحدة تـقوم على التعاون والتكامُل.
- تمحور عقائدي يؤدي إلى إضعاف الطبقية لحساب الفئوية، وهذه فئوية تـقوم على روابطَ اجتماعية وثقافية ذات بُعد شعوبي أو ديني أو مذهبي، وليس بُعداً اجتماعياً اقتصادياً.

إن النظر إلى الماضي مهمّ، لكن النجاح في التعامل مع الحاضر والمستقبل بإيجابية يحتاج إلى إبقاء إحدى العينين مسلطة على المستقبل. وهذا يعني أنه لا بد من توظيف الماضي وعِبَره وتركتهِ الحضارية بشقيها الثقافي والاقتصادي المادي في خدمة الحاضر ومن أجل تشكيل المستقبل، وليس توظيف الحاضر في خِدمة الماضي، ورهنِ المستقبل في سبيل الحِفاظ على تراث الماضي وتَرِكته الحضارية، مهما كانت تلك التركة مهمة وذاتَ شأن.

كل قضية مهمة يعيشها أيُّ قطر في العالم أصبحت اليوم قضية إقليمية أو عالمية، سواء كانت القضية المعنية مالية أو اقتصادية أو سياسية، أو دينية أو طائفية، أو ثقافية اجتماعية أو حتى بيئية. وهذا يعني أنه لم يعُد بإمكان دولة أن تتغلب بمفردها على مشكلة وطنية رئيسية، إذ تحتاج كل مشكلة من هذا النوع إلى تعاون دولي تُشارك فيه دول أخرى، قد يكون بعضها دولاً صديقة، وقد يكون بعضها الآخر دولاً منافسة أو معادية. كما أن التوصل إلى حلول علمية وعملية يحتاج إلى دراسة الظروف الموضوعية التي تحيط بالقضية المعنية، والفئة أو الشعب أو الدولة المعنية بتلك القضية بوصفها ظروفاً ذاتَ أبعادٍ إقليمية وأحياناً دولية عالمية.

إن سقوط الماركسية وتفكك الاتحاد السوفييتي أعطى أمريكا فرصة كبيرة لتقوم بدور القوة العظمى الوحيدة، ما جعلها تتجه إلى الهيمنة على العالم والانفراد في إدارة شؤونه، وذلك بدلاً من العمل على حلّ المشكلات الدولية المزمنة، وتحقيق العَدالة، ومساعدة الفقراء من شعوبٍ ودول على التنمية والنهضة. وقد جاءت حروب أمريكا في أفغانستان والعراق وغيرهما من الدول، وما سببته تلك الحروب من قتل ودمار لتثبت أن أمريكا أساءت التصرف، ولم تُؤَدِّ الدورَ المنوط بها بشكل يعزز السِّلم العالمي. إضافة إلى ذلك، قامت أمريكا باستغلال الظروف الدولية لدعم نُظمِ حكمٍ استبدادية وعنصرية موالية لها، والسماح باتساع الفجوة بين فقراء العالم وأغنيائه، والإسهام في زيادة ما تعانيه معظمُ شعوب العالم من مشكلات وأزمات.

لكنَّ إخفاق أمريكا في العراق، وسقوط المحافظين الجدد في عام 2009، تسبَّب في دخول الهيمنة الأمريكية حقبة التراجع. ولمّا كان من الصعب على رئيسٍ أمريكي أن يقف مكتوفَ الأيدي فيما تتراجع قوة بلاده النسبية ومكانتها الدولية، فإن الرئيس أوباما قام بمغامرات غير محسوبة أضعَفتْ مصداقية أمريكا على الساحة الدولية، وسبّبت إلحاق المزيد من المعاناة بشعوب عديدة، بما فيها شعوب عربية عدة كانت هدفاً لمغامرات أوباما، ومختبراً لسياسة جديدة استهدفت تمزيقَ النسيج الثقافي والاجتماعي لتلك الشعوب وتحويل دولها إلى دُول فاشلة، كما حدث في العراق وليبيا وسوريا واليمن واوكرانيا وغيرها.

أما التنبؤ بما يمكن أن يحدث في المستقبل فيحتاج إلى إدراك أمور عديدة، منها: رؤية الواقع الدولي على حقيقته، والتعرف إلى أهم القِوى التي تؤثر فيه وتقوده مرغَماً نحو التغيير، ودراسة علاقات الدول الكبرى مع بعضها بشكل متواصل، وتحديد مصالح تلك الدول وطبيعة الأفكار التي تحكم علاقاتها الثنائية والجماعية، ومتابعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية والأمنية الدولية. كما أن من الضروري إدراك أن القضايا الوطنية الرئيسية ذات أبعاد ومُسببات دولية خارجية، وأن القضايا الدولية المهمة ذات تبعات وطنية، وأن القضايا الوطنية والقضايا الدولية تتشابك مع بعضها، ما يجعل التعامل

بجِدّية وكفاءة مع معظم تلك القضايا يحتاج إلى تعاوُن دولي تشارك فيه العديدُ من الدول والمنظمات الدولية السياسية والاقتصادية والتجارية، وأحيانا منظمات المجتمع المدني الكبيرة أيضا.

23

الشباب والمستقبل

إن تدويل أسواق التجارة والمال والاستثمار الرئيسية في العالم جعَل سوق الوظائف المهمة عالميةَ الأبعاد ومعرفيةَ المتطلبات إلى حد بعيد. نتيجة لهذا التطور، أصبح على كل طلبة الجامعات أن يدركوا أن الواقع يَفرض عليهم أن يتنافسوا مع أقرانهم الدارسين في مختلف بلاد العالم، خاصة أنّ الموارد البشرية المؤهَّلة تأهيلاً علمياً وفنياً عالياً أصبحت تتحرك عبر الحدود السياسية والثقافية بسهولة كبيرة لم يشهد الماضي مثيلاً لها. الأمر الذي يعني أن على الطلبة في كل مكان أن يدركوا أن الدراسة الجامعية هي فرصتهم الوحيدة للحصول على المعارف العِلمية والتكنولوجية التي تتزايد الحاجة إليها عالمياً بشكل يومي، وأن يقوموا بتبني المواقف الثقافية السليمة التي لا بد من اكتسابها للقيام بالعمل المطلوب على أفضل وجه ممكن. إذ لا قيمة لأيّ علم مهما كان نوعه إذا لم يقترن بالمواقفِ السليمة من العمل والوقت والحياة والبيئة، والغير من الناس.

من ناحية ثانية، قامت حرية التجارة وتكامل أسواق المال والاستثمار في العالم بتغيير القواعد التي تحكم العلاقة بين الوظائف والعمال، خاصة العمالَ الصناعيين والمعرفيين. قبل عقدين من الزمن أو ثلاثة، كان على معظم طالبي العمل أن يتركوا قُراهم، وأحياناً مدنهم وأوطانهم، للحصول على وظائف مجزية من ناحية الدخل والرضا عن النفس. كما كان على الكثير من مواطني الدول الفقيرة أن يخاطِروا بحياتهم في بعض الحالات كي يصلوا إلى شواطئِ آمنة بلادٍ توفر لهم إمكانات العمل والعيش الكريم. ومع أنّ الهجرة الاقتصادية ما تزال مستمرة، إلا أن معظم المهاجرين اليوم يتصفون بضَعف تعليمهم وتواضع مهاراتهم الفنية، ما يجعل مشاركتهم في الاقتصاد المَعرفي وبالتالي استفادتهم منه متواضعة للغاية.

في المقابل، تقوم الوظائف الصناعية والمعرفية بالتنقل من مكان لآخر بحثاً عن عمال مؤهلين من النواحي العلمية والتقنية والثقافية. إذ فيما تسافر الوظائف الصناعية من دولة لأخرى بحُرية كبيرة، تسافر الوظائف المعرفية ضمن عالم افتراضي يُمكِّن العمالَ المعرفيين من العمل لدى شركاتٍ أجنبية من دون أن يغادروا أوطانهم ومُدُنهم، وأحياناً بيوتهم. وفي ضوء تخلي الشركات متعددة الجنسية عن التزاماتها التقليدية تجاه الأوطان والعمال، فإن قرارات الاستثمار لم يعُد يحكمها شيء سوى العوائد المادية المتوقعة. الأمرالذي يجعل المجتمعات الأكثر جاذبية للاستثمارات الخارجية هي المجتمعات الأكثر استعداداً لاستقبال عمليات التصنيع، ويجعل العمال الأكثر تأهيلاً من النواحي العلمية والفنية والثقافية هم العمالَ الأكثر حظوظاً في الحصول على وظائفَ جيدة تحقق لهم أحلامهم، وتضمن لهم النجاة من الفقر والحاجة والقلق.

حين يلتحق الشباب من الجنسين بالجامعة، فإنهم يقضون فيها عادة أربعَ سنوات من عمرهم قبل التخرج. لكن لو تم حساب الوقت الذي يقضيه الطالب فعلياً في صفوف الدراسة خلال تلك السنوات، فإن المجموع لا يزيد على شهرين. وهذه فترة قصيرة جداً من حياة كل شاب وشابة إذا ما قُورنت بسنوات العمر الافتراضي لكل منهم. وفي ضوء اندماج معظم أسواق العمل الوطنية في سوق الكفاءات العالمي، فقد أصبح على كلِّ الطلبة الذين يحرصون على تعزيز مواقِعهم الاجتماعية، وتحسين فرصهم في الحياة أن يستثمروا كل دقيقة من سنوات وُجودهم في الجامعة في الحصول على أكبرِ قدر ممكن من المعرفة والخبرة، وإتقان مهارات البحث والتفكير النقدي، واكتساب المواقفِ السليمة. إنَّ مصير كلِّ خريج جامعي وعامل صناعي اليوم يعتمد اعتماداً كبيراً ومباشراً على ما لديه من معارفَ علمية وتقنية ومواقف ثقافية.

إن تخصيص ساعات قليلة كل يوم للحصول على العلم والمعرفة هو السبيلُ الأمثل لمتعة حياتية في الحاضر، وحياة ثرية في المستقبل، كما أنه الوسيلة الأخلاقية الأفضلُ لتجنب الانحراف والانخراط في نشاطات ترفيهية تافهة، أو مضرة بالصحة مثل التدخين والتسكع في الأسواق التجارية. إذ إن الانخراط في نشاطات التدخين والإدمان على تعاطي المخدرات والكحول، وغيرها من نشاطات اجتماعية غير منتجة من شأنه أن يدمر الكثير مما لدى كلِّ طالب وطالبة من قِيم، ويَحرِمَهم من متعة الحياة في المستقبل، ويَسرق منهم الكثيرَ من الوقت، علماً بأن الوقتَ الذي يضيع لا يعوض أبداً.

من ناحية ثانية، على كل طالب أن يعي أن التعامل مع المعرفة بوصفها وسيلة للحصول على شهادة ثانوية أو جامعية هو جريمة يرتكبها كلُّ طالب وطالبة بحق أنفسهم ومجتمعاتهم وأوطانهم، فيما يعدّ التعامل مع المعرفة بوصفها هدفاً بحد ذاته أمراً ممتعاً وموقفاً أخلاقيًا، وضرورةً حياتية وإنسانية. إن من شأن الساعات القليلة التي يوظفها الطالب في الحصول على العلم والمعرفة والمواقفِ السليمة أن تجعل مشقاتِ العمل والكفاح التي تلي التخرجَ من الجامعة ممتعة، والحصول على وظيفةٍ جيدة شبه مضمون، والنجاحَ في التحرر من الفقر والكبت والحاجة وتحقيق الاستقلال الذاتي أمراً سهلاً. وهذا يعني أن من يتجنب ارتكاب أخطاء جسيمة في سنوات المراهقة والدراسة في المدارس والجامعات، يتجنب قضاء سنوات النُّضْج والعمل في محاولات مُضْنِية وغالباً فاشلة لتصحيح أخطاء الشباب، وقضاء سنوات الشيخوخة في محاولاتٍ يائسة لتبرير أسباب فشل رحلة العمر.

التفكير في الماضي والمستقبل

حين يفكر مثقفو العرب ومؤرخوهم التقليديون في الماضي، وذلك في سعيهم الحثيث لاستكشاف كنوز العصر الذهبي الذي كان، فإنهم يشعرون في نهاية المطاف إمّا بالارتياح لمجرد تخيلِ عصر كان جميلاً وعظيماً حين كان حياً، أو بالحسرة بسبب تخلفِ أوضاعهم المعيشية في الوقتِ الراهن عما كانت عليه في الماضي مقارنة بغيرهم من الشعوب التي عاشت إلى جوارهم. كما أن من الممكن أن يَشعروا بالمرارة بسبب فشلهم في تحقيق إنجازات ذات قيمة عبر القرون الخمسة الأخيرة تـقترب من إنجازات عصرهم الذهبي النسبية. لكن في كل الحالات، يقود التفكير العربي هذا إلى إضاعة الكثير من الوقت والجهد والمال سُدى، لأن التفكير في ماضٍ فات ومات يتسبب في تلويث فكر قِطَاع كبير من الشعوب العربية بخيالات لا وجود لها ولا فائدة من ورائها. لكن قبل الحديث عن الماضي والحاضر والمستقبل، نرى أن من الواجب تحديد المعاني المقصودة من هذه الكلمات، وعلاقـتها بحياة الإنسان ومستقبله وبُنيته الثقافية.

الماضي هو الظروف الحياتية التي تركناها خلفنا قبل لحظاتٍ تعاني سكرات الموت، بسبب تـقادمها في السن، والوصول إلى مرحلة عدم القدرة على مسايرة الزمن الذي لا يتوقف عن المسير، والفشل في إنتاج ما هو جديد ومفيدٌ من أفكار وعلوم وأشياء.

أما **الحاضر** فهو الظروف الحياتية التي نعيشها في الوقت الراهن، ونقوم بتشكيلها باستخدام ما لدينا من علوم وأدوات تكنولوجية وموارِدَ بشرية ومالية، وقدرة على العمل والتفكير، وذلك في ضوء خلفيتنا الثقافية ورؤيتنا المستقبلية وحصيلة ما لدينا من تجارب حياتية.

أما **المستقبل** فهو الظروف الحياتية التي نحلم أن نراها، وقد تحقـقت مع طلوع الشمس في صباح اليوم التالي. بناء على ذلك، يصبح الحاضر بمنزلة جسر يربط الماضي بالمستقبل بروابط متينة أو واهية، ما يجعله يشكل فـترة انتقالية وظيفـتها الأساسية هي تمكين المجتمع المعنيّ من تجاوز الماضي بكل ما له وما عليه، والتطلع نحو مستـقبل جديد يقوم أفراد المجتمع المعني بتشكيله، كي يكون أكثر إنجازاً ورفاهية، أو أقل بؤساً وإحباطاً. ومع أننا نجد أنفسنا مضطرين غالباً أن نـتحاشى الخوض في بعض الأفكار والمسلَّمات ذات الحساسية، إلا أننا لا نتوقف في كل الحالات والأحيان عن طرح التساؤلات حول عامة الأمور الحياتية المتعلقة بالماضي والحاضر والمستقبل على السواء، حتى ونحن نقوم بإدارة أمور الحاضر والعمل على صنع المستقبل.

حين تَطْرحُ إشكالية التغير والتقدم نفسها على الفرد، تصبح الأسئلة المطلوب الإجابة عنها هي: ماذا كُنتَ في الماضي القريب؟ من أنت في الوقت الراهن؟ من تريد أن تكون في المستقبل؟ كيف يمكن لك أن تـنتـقل من هنا إلى هناك؟ وهل كان الطريق الذي سلكته للانتقال من الماضي إلى الحاضر مُرضياً؟ أما بالنسبة للمجتمع الذي يجد نفسه مضطراً للتعامل مع إشكالية التنمية والنهضة، فإن الأسئلة التي يكون عليه الإجابة عنها لا تختلف كثيراً عن الأسئلة الموجَّهة للفرد. لكن تلك الأسئلة تكون عادة أكثر إلحاحاً وحساسية، لانها تـتعلق بمصير مجتمع وليس فرد: أين كنـتم في الماضي؟ أين أنتم في الوقت الراهن؟ أين تريدون أن تكونوا في المستقبل القريب؟ وكيف يمكن لكم الانتقال من هنا إلى هناك؟ أو بكلمات أخرى: ما هو الموقع الذي تعتزون به وكنتم تشغلونه في ترتيب الشعوب والدول في الماضي؟ وما هو الموقع الذي تشغلونه في ترتيب الدول والشعوب في الوقت الراهن؟ وما هو الموقع الذي ترغبون في أن تحصلوا عليه في ترتيب دول وشعوب العالم في المستـقبل؟ وهل كان الطريق الذي تم اختياره للانتقال من الماضي إلى الحاضر مُرضياً؟

إذا كانت الإجابة عن السؤال الأخير بالإيجاب، فمعنى ذلك أن كل ما على الفرد المعنيّ والمجتمع المعني أن يفعله هو السير على الطريق نفسه، ولكن بحماسٍ ووضوحِ رؤيةٍ أكثر من السابق، ونظرة تعي توجهات المستقبل وما يَعِد به من تحولات. أما إذا كانت الإجابة بالنفي، فمعنى ذلك أن على الفرد المعني والمجتمع المعني أن يختار طريقاً يختلف عن الطريق الذي سلكه في الماضي وصولاً إلى الحاضر، وهذه قضية في غاية الأهمية والتعقيد، لأنها تشمل الاعتراف ضمناً أن هناك حاجة لإحداث تغيـير كبير في طرق التفكير والتخطيط والعمل والإدارة، وفي التقاليد والعادات والمواقف الشعبية، وفي القِيم الثقافية التي تؤثر في سلوكات الأفراد، وأداء المؤسسات العامة القائمة في المجتمع، وفوق ذلك كله إحداث تغيير في الرؤية الفلسفية التي تشكل الإطار العام لتفكير النخبة وسياسة الدولة.

إن القضية الأهم التي لا بد من دراستها حين يأتي الحديث على الماضي هي القضية الثقافية، بما في ذلك التقاليد والقيم والمواقف والأغاني وفنون الرقص الشعبية، وتركة الماضي التراثية والنظرة إليها، والذاكرة الجمعية للشعب أو الأمة المعنية. أما فيما يتعلق بالحاضر، فإن القضايا الأولى التي يصبح على المجتمع أن يتدارسها فهي الاقـتصاد وما ينبثق عنه عادة من تفاوت في مستويات المعيشة وتوزيع الدخل والثروة بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته، ونظم التعليم والتربية، والإنجازات العلمية والتكنولوجية التي حقـقها، والتحولات الاجتماعية والثقافية التي مرَّ بها في طريقه من الماضي إلى الحاضر. أما حين يأتي الحديث على المستقبل، فإن القضايا الرئيسية التي يجب أن تحظى بالأولوية والأهمية فتشمل قضية

المعرفة وكيفيةَ الحصول عليها وإنتاجها ونشرها في المجتمع وتوظيفها لخدمته، والقضية الاقتصادية التي تعني كيفية رفع إنتاجية العامل والموظف ودخول عالم الصناعة والمعرفة، والقضية الاجتماعية الثقافية التي تتحكم في مستويات الإنتاج والإنتاجية ومواقف عامة الناس من الوقت والعمل والحياة. وهذه قضايا متداخلة لا يمكن فصلها عن بعضها، فالعلم والمعرفة على سبيل المثال، هي أدوات إدارة الحاضر وصنع المستقبل، وهي عواملُ نهضة وتقدم لا يمكن دخول عصر الصناعة والمعرفة في غيابها، كما أنها وسائلُ عمل وأطر تفكير يستخدمها المجتمع لإحداثِ ما يحتاج إليه من تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية.

بعد تدارس هذه القضايا بعناية، يصبح من السهل الحُكم على الحاضر فيما إذا كان قادراً على تلبية متطلبات الناس الآنية والتجاوب مع تطلعاتهم المستقبلية، أم أنه مجرد امتداد لماضٍ قضَى نَحْبَه، وفقَد منطقه وحكمته وبالتالي صلاحيته. من ناحية ثانية، إذا كان الحاضر يَحظى برضى أغلبية أفراد المجتمع، فإن معنى ذلك أن الطريق الذي سار عليه المجتمع في طريقه من الماضي إلى الحاضر كان سليماً أو متوافقاً مع تطلعات الأغلبية الشعبية. وهذا يعني أن كل ما يحتاج المجتمع إليه هو مواصلة السير على الطريق نفسه مع تعديل مساره قليلاً أو كثيراً كي يتمشى مع حقائق العصر وتوجهاته المتغيرة. لكن إذا أبدَى أكثرُ الناس عدم رضاهم عن الواقع، فإنَّ معنى ذلك أن هناك حاجة لتغيير المسار القديم برُمته.

تعدّ المعارف العلمية والتطورات التكنولوجية التي أخذت تتراكم بشكل مضطرد منذ بداية الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامنَ عشر هي المسؤول الأول والأهمّ عن التطورات الاقتصادية والتحولات الثقافية والاجتماعية التي شهدها العالم منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا. لذلك أصبحت عمليات الحصول على المعرفة، وكيفية الاستفادة منها في عمليات تطوير الاقتصاد والحياة هي القضية الأولى التي تحظى باهتمام أغلب الشعوب التي تسعى لتحقيق التنمية والنهضة. مع ذلك، على كل مجتمع أن يدرك أنه لا يمكن لأي معرفة أن تُسهم في تطوير النواحي الاقتصادية وغير الاقتصادية إلا إذا كانت البيئة الثقافية الاجتماعية مواتية لنقل المعرفة، وتأسيسها في البنية العلمية للمجتمع، ونشرها بين مختلف قطاعاته على نطاق واسع. وهذا يجعل الاهتمام بالمعرفة وإنتاجها وتراكمها ونشرها، وإحداث تحولات اجتماعية وثقافية واسعة في المجتمع هو أساس خطة العمل المؤهلة لتحقيق ما يحتاجه المجتمع من نهضة وتقدم.

ومع أن الكثيرَ من حكايات الماضي شائقة وممتعة، إلا أن التفكير في الماضي كأنه حاضر يعيش مع الناس ويغمرُهم بعبيره الفوَّاح لن يعود على المجتمع إلا بخيبات الأمل. وما دام الحاضر يمثّل فترة انتقالية بين الماضي والمستقبل، فإن التفكير لا بد وأن يركّز على المستقبل، وكيف يمكن صُنعه بالشكل الذي يُلبي طموحات الشعب في الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية، والاستحواذ على مكانة مرموقة بين الأمم. من

ناحية ثانية، يمنح التفكير في المستقبل كلَّ شعب قدراً كبيراً من الأمل الذي يُعتبر بحد ذاته مفتاحَ صنع المستقبل، فالأمل يسكُن في المستقبل وليس في الماضي... إنه حلم جميل يصنعه الإنسان بنفسه، ما يجعله يدفع الإنسان المعني إلى التعليم والتخطيط والعمل بحمَاس ومثابرة، والاتجاه نحو التمـتع بالحياة من خلال الإنـتاج ومواصلة عملية التعلم، واحترام كل مكونات الحياة من وقت وعمل وبشر وبيئة وحيوانات وتراث.

إن قيام أمة بدراسة تاريخها بهدف التعرف إلى ميّزات العصر الذهبي الذي كان هو أمرٌ يشكل بحد ذاته قوة دفع مهمة تُحفز الشعب المعني عادة على تكرار تجربة الماضي، والعمل على التفوق عليها بالاستحواذ على المزيد من العلم والتكنولوجيا والفلسفة وغيرها من علوم وفـنون تعكس روح المستقبل وتـتجاوب مع متطلبات تحقيق النهضة والتقدم فيه. لكن العرب، بدلاً من توظيف التراث لتحفيز الحاضر وشحْذِ الهِمم وصنع المستقبل، يقومون اليوم باستخدام ذلك التراث بوصفه عاملَ ضعف يكبّلهم، ويرمي بهم في سجن بلا نوافذ تطل على العالم، سوى نافذة يتيمة تطل على آثار مُدمرة لعالم ليس له وجود. إن على العرب، بوصفهم أمة متخلفة تصارعُ من أجل البقاء والحفاظ على وجودها، أن يقوموا بتجميع ما لديهم من ملكات عقليةٍ ومواردَ بشرية وثرواتٍ طبيعية وفرصٍ، وتوظيفها لتحديد العوامل التي مكنت عرب الماضي من تغيير أنفسهم، وتغيير العالم المحيط بهم، وليس من أجل اقـتباس فكر الأقدمين الذي تجاوزه الزمن منذ زمن بعيد، وتوظيفه أداة لتـثبـيط هِـمـمهم وضمان جُمودهم، فيما تـتسارع حركة العالم من حولهم.

25

حكمة الماضي

تتميز الأفكار والمعارف العلمية عامة بطبيعتها التراكمية، وذلك كما هو الحال بالنسبة للعلوم والتكنولوجيا، ما يجعل معظمَ الأفكار العلمية الجديدة تُبنى على أكتاف نظريات وحقائقَ قديمة. وهذا يجعل التعرف إلى الأفكار القديمة وتحليلها وتقييم أهميتها قضية لا غنى عنها لمتابعة تاريخ التطور الفكري، وفهم مدى ما عاشته المجتمعات الإنسانية القديمة من تطورٍ علمي وتحول ثقافي، وما حققته من إنجازات في تلك المجالات. إلا أن تحديدَ دور تلك الأفكار في حياة المجتمعات الإنسانية، وما مرت به من أحداث يوجب وضع كلّ الأفكار المعنية في إطارها التاريخي السليم، أي يوجب النظر إليها من منظور الظروف الخاصة التي شكلتها وأسهمت في تطويرها إبان عصرها. إن التعرف إلى الظروف التي أسهمت في ميلاد الأفكار، وقادت عمليات التطور الإنساني والحضاري في الماضي، وتحديد مدى تشابه ظروفِ ذلك الماضي مع ظروف الحاضر هي المدخل لتحديد إمكانية الاستفادة من عِبَر الماضي وتجاربه الحياتية في إدارة الحاضر ومواجهة تحدياته. أما الفشل في التعامل مع فكر الماضي بهذه الطريقة، فمن شأنه أن يتسبب في إساءة فهْم الماضي والحاضر معاً، والعيش مع أوهام وتخيلات غير واقعية وغير علمية، وبالتالي غير عقلانية تقود إلى إضاعة الوقت والفرص المتاحة، والفشل في بناء مستقبل أفضل للأجيال المقبلة.

حين تكون الغاية من دراسة التاريخ هي تحديد إمكانية الاستفادة من تجاربه وعِبره وحِكمته في فهْم الحاضر والتعامل مع مشكلاته، ومواجهة تحديات المستقبل المحتلمة، فإن ذلك يوجب تحليل المسيرة التاريخية في ضوء ظروف الماضي والحاضر وتوقعات التطور المستقبلية. فإذا كانت الظروف الموضوعية التي أفرزت الأحداث والأفكار القديمة، وقادت عمليات التطور المجتمعي في الماضي شبيهة بالظروف الموضوعية التي يعيشها الحاضر، فمعنى ذلك أن بالإمكان الاستفادة من تجارب الماضي وعِبره في إدارة الحاضر. أما إذا كانت ظروفُ الحاضر مختلفة عن ظروف الماضي، فمعنى ذلك أن دروس الماضي وأفكارَه هي من شأن ذلك الماضي وحده، وبالتالي لا تصلح لزمنٍ مختلف عن الماضي.

وهذا يعني أن الرجوعَ لتجارب الماضي ودروسه، والقيام باستخدامها أدوات للتعامل مع تحديات الحاضر دون دراسة ظروفها الخاصة هو عمل خاطئ من شأنه أن يؤدي إلى نتائج سلبية. أما حين تكون نظرة الحاضر للماضي بوصفه **"العصر الذهبي"** الذي يحدد منطقه أسس التعامل مع الحاضر وتحديات

المستقبل، فإن الاعتماد على عِبر ذلك الماضي ودروسه ومنطق تاريخه من المؤكد أن يؤدي إلى نتائج كارثية، لأن التاريخ لا يعيد نفسَه لحظة واحدة.

تميل الشعوب العربية عامة وأغلب مثقفيها التقليديين إلى التعامل مع الماضي بوصفه قضية فكرية وثقافية سامية، لا تغيب عن البال أو الأنظار، بل قضية حياتية موجودة بشكل دائم أو شبه دائم في العقل والضمير. لكن الانشغال بقضايا الماضي وإسقاط ظروفه وتحدياته وتجاربه على ظروف الواقع وتحدياته من شأنه أن يتسبب في سُوء فهْم الماضي والحاضر على السواء، وعدم إدراك علاقة الماضي بالحاضر، وعلاقة الحاضر بالمستقبل. وهذا يعني أن التركيز على الماضي من شبه المؤكد أن يقود المعنيين بعمليات الإصلاح والتغيير إلى إغماض عيونهم عما يعيشه الواقع من تطورات وتحولات لا علاقة لها بالماضي، وإهمال ما يواجهه من تحديات حياتية مختلفة كثيراً، وأحياناً جذرياً عن التحديات التي وقعت في الماضي البعيد. ومع الإخفاق في التعامل بعلمية وواقعية مع الحاضر يصبح من غير الممكن فهْم تحديات المستقبل، وصُنع مستقبل يستوعب حقائقَ العصر، ويتجاوب مع تطلعات الأجيال القادمة.

لذلك لا يجوز النظر إلى التاريخ باعتباره عملية متواصلة تستخدم أدوات عمل واحدة، وتعتمد على منطق أزلي؛ فالتاريخ عبارة عن قطار يسير على طريق متعرّج، يتوقف أحياناً ليتيح الفرصة لبعض ركابه كي ينزلوا فيما يركب غيرهم، ويتوقف أحيانا أخرى من أجل أن يقوم المعنيون بصيانة المحركات التي تقوده، وإعادة النظر في الخطط التي يسير على هديها والطريق الذي يسير عليها. وبسبب هذا الأمر، يفرز التاريخ دروساً وعِبراً متباينة، وأحياناً متناقضة تصلح لأزمنةٍ متباعدة، لأن المنطق الذي يحكُم حركته وخطَّ سيرِه العام يتغير تبعاً لتغير الأماكن التي يمر بها. ولما كان لكل مكان وزمان ظروف تختلف كثيراً أو قليلاً عن غيرها، فإن منطق التاريخ وعِبره وتجاربه تختلف من مكان لآخر، ومن زمن لآخر.

وهذا يعني أن **"المثقفين"** الذين يسلطون أنظارهم على الماضي ويُغمضون عيونهم عن المستقبل، لن يكون باستطاعتهم فهْم الحاضر والتعامل مع ما يعيشه من مشاكل ويواجهه من تحديات، ولا الإسهام في صُنع مستقبل يحمل بعض الأمل للأجيال الفتية. لذلك ليس بإمكان قيادات تقليدية ومثقفين تقليديين أن يحققوا شيئاً سوى الفشل والإخفاق، وقيادة الشعوب التي يحكمونها ويهيمنون على ثقافتها إلى تعميق التبعية للغير من شعوب ودول، وتكريس التخلف عن ركب الحضارة الإنسانية. إن الغَرق في قضايا فكرية جدلية قديمة يجعلُ التاريخ مِعْوَل هدمٍ يقوم بتزييف وعي عامة الناس وتشويه نظرتهم لأنفسهم وغيرهم من الأمم، ودَفن أحلام الحاضر وتكريس تخلفه، ووَأدِ آمال المستقبل وتطلعاته الإنسانية والحضارية.

إن أولَ درس تاريخي على كل إنسان وشعب وأمة أن تفهمه هو أن التاريخ لا يكرر نفسه أبداً، ولا لمجرد لحظة واحدة. ومع أن من الممكن أن يقترب التاريخ من إعادة تمثيل أحد أدواره السابقة، إلا أنه لا يكرر نفسه إطلاقاً، لأن الظروف الحياتية التي يتجاوزها يوماً بعد يوم لا يمكن إعادة تشكيلها. وهذا يعني أن لكل زمن تاريخاً خاصاً، ولكل تاريخ منطقٌ خاصٌّ كذلك، وبالتالي حِكم وعِبر وإنجازات مختلفة عن حِكم وعِبر وإنجازات التاريخ الذي سبقه، والتاريخ الذي سيأتي من بعده. كما أنَّ لكل عصر من العصور مجتمعاً خاصاً به، وثقافة مميزة، واقتصاداً يختلف عما سبقه، ما يعني أن تقاليد وعادات ومواقف وقيم وطرقَ تفكير كل عصر تختلف نوعياً وجذرياً عما سبقها، وعما سيتبعها من ثقافات. وهذا يعني أن لكل مجتمع مشكلاته وتحدياته وظروفه الحياتية الخاصة به، ما يوجب النظر إليه باعتباره قضية خاصة بحاجةٍ لأفكار وأساليبِ عمل نابعة من داخله، قد تـقـترض بعض مفاهيمها من تجارب شعوب أخرى تعيش ظروفاً مشابهة، لكنها لا تقلد أحداً؛ لأن التقليد في مثل هذه الحالة ليس إلا محاولة لتمثيل دور على خشبة مسرح بعيد عن الوقائع، ما يجعل التقليد مخاطرة بمستقبل الوطن والأجيال القادمة.

26

جوهر الثقافة عبر العصور

فرضت البيئة الطبيعية على المجتمع القبلي الذي عاش عشرات الآلاف من السنين أن يعيش على صيد الحيوانات، ورعي الغنم والإبل وغيرها من حيوانات أليفة، وأن يحارب غيرَه من حيوانات وقبائل كي يحصُل على قوت يومه ويحافظ على بقائه، ويتمتع بحياته. لذلك اتَّصفت علاقة القبائل مع بعضها بالشك المتبادل، وقيامها بغزو بعضها لسببٍ أحياناً ومن دون سبب في أغلب الأحيان. ومع الأيام، وجد الإنسان القبلي نفسَه، من حيث لا يدري، أنه يكرس جُلَّ حياته للقتال والحرب، لأنه وجَد في الغزو ونشاطات الفُروسية والمبارزة وسيلة لسبي النساء ونَهْب الأموال، ومصدراً للمتعة والترفيه عن النفس. لذلك، كان الإنسان القبلي **" يحارب ليعيش ويعيش ليحارب"**.

وبذلك يكون الغزو وما يرافقه عادة من قتتل ونهب وسبي هو جوهر ثقافة عصر القبلية، وهو جوهرٌ جعَل حياة الإنسان القبلي تبدأ، وتـنـتهي بالقـتال.

في عصر الزراعة الذي تلا عصر القبلية ورافقه لآلاف السنين التالية، كان على المجتمع الزراعي أن يفلح الأرض كي ينتج غذاءه ويحافظ على حياته ووجوده. وفي ضوء إقامة الفلاحين في قُرى صغيرة ومساكنَ متجاورة فإن الثقة المتبادلة والمَيل إلى التعاون طغَت على علاقتهم مع بعضهم. ومع الأيام، وجد الإنسان الزراعي نفسه، من حيث لا يدري، أنه يكرس جل حياته لإنتاج المحاصيل الزراعية وأكلِها، لأنه وَجَد في زراعة الأرض والعناية بالمزروعات، وموائد الطعام، والولائم الجماعية مصدراً للمتعة والترفيه عن النفس، ومجالاً لممارسة نشاطات اجتماعية متعددة ذات علاقة بتمضية الوقت. لذلك، كان الإنسان الزراعي وما يزال **"يأكل ليعيش ويعيش ليأكل"**.

وبذلك تكون ولائم الطعام وما يصاحبها عادة من تجمعاتٍ وحكايات وإشاعاتٍ ونشاطات هي جوهر ثقافة عصر الزراعة، ما يجعل حياة الإنسان الزراعي تبدأ وتـنـتهي بالأكل.

في عصر الصناعة الذي تلا عصر الزراعة ورافـقه حتى يومنا هذا، كانت حياة المجتمع الصناعي تـتمحور حول المصانع وعمليات التصنيع، حيث كان على العامل الصناعي أن يعمل ساعات طويلة يومياً

مقابلَ أجرة تمكنه من كسب قوتِ يومه والحفاظ على بقائه. ومع الأيام، وجَد الإنسان الصناعيُّ نفسَه، من حيث لا يدري، أنه يكرس جُلَّ حياته للعمل، لأنه وَجَد في الوظيفة والانتماء لمؤسسة إنتاجية أو حكومية مصدراً للمتعة والدخل، ووسيلة لتكوين علاقات اجتماعية مع غيره من العاملين، والاستحواذ على مكانة اجتماعية في مكان العمل والمجتمع. لذلك كان الإنسان الصناعي وما يزال **"يعمل ليعيش ويعيش ليعمل"**.

وبذلك يكون العمل وعلاقات العمل المرتبطة بالمصنع والمؤسسة هي جوهر ثقافة عصر الصناعة، ما يجعل حياة الإنسان الصناعي تبدأ وتـنـتهي بالعمل.

في عصر المعرفة الآخذِ في التكوُّن بسرعة، أصبح على الإنسان المعرفي أن يتعلم كي يحصل على وظيفة جيدة، ويعزز موقعه الاجتماعي في المجتمع الذي يعيش ويَنشَط فيه، وأن يواصل عملية التعلم حتى لا يتخلف عن غيره من المعرفيين. ومع الأيام، وَجَد العامل المعرفي نفسَه، من حيث لا يدري، أنه يكرس جل حياته للمعرفة والعلم، لأنه وجد في التعلم والاستزادة من المعرفة مصدراً للمتعة والترفيه عن النفس والسعادة، ووسيلة للحصول على دخلٍ جيدٍ ومكانة اجتماعية مرموقة بين أقرانه والمجتمع الذي يعيش فيه. لذلك أصبح الإنسان المعرفي **"يتعلم ليعيش ويعيش ليتعلم"**.

وبذلك يكون السعي للحصول على أكبر قدر من المعرفة والعلم هو جوهر ثقافة عصر المعرفة، ما يجعل حياة الإنسان المعرفي تبدأ وتنتهي بالتعلم.

وإذا كانت ثقافة القبلي القائمة على الغزو والنهب والسبي والأخذ بالثأر قد اندثرت أو على وشْكِ أن تـندثر، فإن ثقافة الإنسان الزراعي لا تزال تراوح مكانها بعدما امتدت إلى المدن في المجتمعات النامية التي لم تدخل عصر الصناعة بعدُ، ومن بينها المجتمعات العربية، حيث لا يجد الناس في الأرياف والمدن العربية نشاطاً اجتماعياً أكثرَ متعةً من حفلات الطعام والولائم ونشاطات هدر الوقت. أما ثقافة الإنسان الصناعي فنلاحظ أنها تـتوسع في مختلف بقاع العالم، وإن كان ذلك ببطءٍ وبشكل انـتقائي، وأنها تـقوم على العمل والإنتاج، وتستخدم المصلحية أداة لجَمْع الثروات وتكديسها وإدارتها، ما يجعل العملَ طريقة حياة لا تـتوقف عن العمل. أما ثقافة الإنسان المعرفي فهي الأصغر ولكن الأسرع انتشاراً والأكثر انتقائية، ما يجعلها ثقافة نخبوية إلى حد بعيد، تـقوم على الفرد المعرفي الذي يتحرك بحرية تامة لا تحُدُّها قيود اجتماعية أو تقاليد شعبية، أو ولاءات وطنية أو أيديولوجية، ولا ترى مِهنة أفضل من الحصول على المعرفة، وتوظيفها في مجالات تكنولوجية وخدماتية تعود على صاحبها بفوائدَ مادية ومعنويةٍ كبيرة.

27

الثقافة والعقل

تقوم الشرائع الدينية والمبادئ المنبثقة عنها والتقاليدُ والعادات والأعراف المتوارثة بتعريف السلوكات والمواقف الحميدة وغير الحميدة بالنسبة للفرد والجماعة والشعب. وبناء على تلك التعريفات يصبح بإمكان المجتمع أن يحدد ما هو جيدٌ، وما هو سيئ من المواقف والسلوكات، ما هو حلال وما هو حرام من الأفعال والأقوال، وما هو صحيح وما هو خطأ من الأفكار والآراء. نتيجة لذلك، يصبح الإنسان الملتزم بتعاليم دينه وتقاليد مجتمعه وثقافته عبارةً عن آلةٍ صَمَّاء أو شبه صماء تـتحرك بناء على تعليمات مُبَرْمَجَة في دماغه لا يَحيد عنها، ولا يشعر بحاجةٍ تدفعه نحو الابتعاد عنها. وهذا يجعل ذلك الإنسانَ يرتاح من مهمة التفكير وعِبء استخدام عقله للتعلم من تجاربه، مما يتسبب في إضعاف قدراته على تحديد المفيد من الضارّ من السلوكات والمواقف، والصديق من العدو من الناس. نتيجة لذلك تقود عمليات برمجة العقل إهدارَ معظم ما لدى الإنسان الملتزم بتعاليم دينه وتقاليد مجتمعه من مواهبَ خلَّاقة، وحرمانه من القدرة على وعي أهمية ما يمرُّ به من تجارب في الحياة ومع غيره من البشر. ولما كانت معظم مغريات الحياة تـتـناقض عادة مع التقاليد الشعبية المتوارثة والمفاهيم العقائدية المتعارف عليها، فإن الالتزام بتلك التقاليد والمفاهيم يحرِم الملتزم من معظم متع الحياة. فالشعور بحب متبادل بين رجل وامرأة في بلاد العرب مثلاً يجعل الملتزمَ منهما بالتقاليد والمفاهيم الدينية يشعُر بالندم لمجردِ التفكير في خلوةٍ مع الحبيب، ما يدفعه إلى تجنُّب الوقوع في الحب.

حين يفقد إنسانٌ حقه في استخدام عقله واستغلال مواهبه وتوظيفها في نشاطات تعود عليه وعلى غيره من الناس بسعادة وفائدة، وحين يتنازل عن ذلك الحق بمَحْض إرادته، فإنه يفقد قدرته على الإحساس بعمق مشاعره الإنسانية ودوره في حياة المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا يتسبب في مصادرة جزء كبير أو صغير من إنسانيته ومشاعره التي تمكنه من الإحساس بآلام الفقراء والضعفاء والبسطاء، وطموحات الشباب وأحلامهم، والتعاطف معهم ومحاولة مساعدتهم. ومع الالتزام بحِرفية العقائد الدينية والقِيم الثقافية التقليدية، فإن كل عقائدي ملتزم يصبح عنصرياً يمارس التفرقة بحق مَن يؤمن بعقيدة مختلفة، وينتمي إلى ثقافة غريبة عنه. وحين يقرر إنسان أن يخرج على ما يُكبّل عقله وقلبَه من أفكار وقِيم وتقاليد عَفَا عليها الزمن، فإنه يتحول بسرعةٍ إلى إنسان غير سَوي في عيون الآخرين، ما يجعله يبدو إنساناً منحرفاً من

الناحية الأخلاقية، وضالاً من الناحية العقائدية. ويأتي الخروج على المكبلات العقائدية والثقافية في الكثير من الأحيان والحالات بناءً على نزوةٍ تستهدف ممارسة المحظور تقليدياً، وليس بناء على قناعات ذاتية جاءت بعد تفكير مُضْنٍ وحساب التبعات والخيارات المتاحة. وهذا يجعل الخروجَ على القديم والمألوف عبارة عن ثورة عبثية هدفها الأول هو الاستمتاع بالمحظور من الأمور، وإنهاء عُهود الكبت والحِرمان والتستر بالظلام. نتيجة لذلك، تـتصف سلوكات مثل هذا الشخص بالشذوذ، لا يَحكمُها عقل سليم، ولا توجهها إرادة واعية، وإنما غريزة شِبه حيوانية تعكِس أحياناً أسوأ ما في الإنسان من نَزعةٍ عُدوانية.

إن الحياة الإنسانية هي رحلة تـنقل الإنسان من الفرح إلى الحزن، من الأمل إلى اليأس، من الترقب والغِبطة إلى الملل والتخوف، ومن النظر إلى الأمام بشوقٍ إلى النظر إلى الخلف بحَسْرة وتأمل، ما يجعل الإنسان المثقف الواعي ينظر إلى الحياة باعتبارها تحدياً وفرصة في آن واحد. وعلى العكس من ذلك، ينظر الإنسان العقائدي والتقليدي إلى الحياة بوصفها محطة قصيرة غاوية قبل الانتقال إلى محطة طويلة طاهرةٍ واعدة، مما يدفعه إلى الابتعاد عن تحديات الحياة وما تـتيحه له من فرص جديدة. أما الإنسان الثائر على التقاليد والمعتقدات المكبّلة لحرية العمل والحياة، فإن الحياة بالنسبة له هي المحطة الأهم التي يَرى أن عليه أن يستمتع بكل ما فيها من ملذَّات دون اعتبار لشيء آخر، ما يجعله يضلُّ الطريق في معظم الحالات والأحيان. لذلك، فيما يعيش المؤمن حياته في حالةِ انتظار لا يتحكم فيها ولا يَسعى إلى التحكم في ظروفِها لأنها فانية، يعيش العبثيُّ حياته في نشاط لا يتوقف عن الحركة، وفي حالة ذِهنية تَسعى إلى المُتعة دون ان تـتمسك بتقليد أو قيم معينة، أو تحترم عُرفاً، أو تخدم قضية أخلاقية أو إنسانية.

الإنسان السَّوي هو ذلك الإنسان الذي يبني حياته بالعقل، ويعيش مع العقل، وينمو وينضج باستخدام العقل، ولا يقرر شيئاً مهماً من دون أن يسأل نفسَه لماذا؟ وكيف؟ وما هي التبعات المحتملة بالنسبة للذات والمجتمع وغيره من البشر؟ ويترك لعقله الحرية كي يفكر ويتأمل ويجيب عن الأسئلة الأولى، فيما يترك لضميره مهمة الإجابة عن السؤال الأخير؛ لأن الضمير هو صِمَام الأمان ضد الانحراف والتهور. وهذا من شأنه أن يُمكِّن الإنسان المعنيَّ من التصرف بعقلانية وواقعية وعلمية وأخلاقية في آن واحد... عقلانية الفكر القائم على المنطق، وواقعية ظروف الحياة التي لا تتوقف عن التغير والتحول، وما يسودها من تقاليدَ مجتمعية وعقائدَ فكرية وظروفٍ معيشية، وحقائق علمية تتراكم بسرعة. وهذه أمور تجعل الإنسان السوي يعي أن لكل شيء سبباً وهدفاً وحدوداً تقوم على احترام حقوق كافة البشر والطبيعة والحيوان والبيئة، وفوق ذلك كله أخلاقية تـتمسك بإنسانية الإنسان، وتعمل على تعزيزها ورفع شأنها باستمرار.

28

المعرفة والثروة

أدَّت المعرفة منذ فجر التاريخ دوراً مهماً في حياة الانسان، وفي تقدُّم المجتمعات البشرية وتحريرها من الفقر والجهل والظلم. وإذا كان الانسان القبلي قد افتقد دوافع التقدم وعوامل التطور، فإنه بدأ بالاستحواذ على تلك الدوافع والعوامل تدريجياً بعد اكتشاف الزراعة ودخوله عصرَها، والتحول تدريجياً من حياة التجوال الى حياة الاستقرار. إلا أن المعرفة وصناعتها في العصر الزراعي كانت ترفاً لا يمارسه غير الأغنياء، ولا يُشجعه غير السلاطين، ولا يَستخدمه غير أصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي والثقافي.

أما في العصر الصناعي، فإن المعرفة أصبحت وسيلة لتقدم الاقتصاد وتطوير التكنولوجيا الصناعية وتحرير الفرد والمجتمع من التخلف بأشكاله المتعددة، ما جعلها تتحول بسرعة من مبادرات فردية الى عمليات مؤسسية تموّلها الدولة وأصحاب المصالح الاقتصادية، ويستخدمها الحُكام ورجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال وغيرهم لزيادة ثرواتهم وتكريس نفوذِهم. وفي عصر العولمة أصبحت المعرفة حاجة فردية ومجتمعية على السواء، وأهم أدوات تحرير الذات من القيود الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، بما في ذلك قيود الفقر والقهر السياسي والكبت الاجتماعي والتبعية الفكرية والدينية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العولمة هي ظاهرة كونية تبلورت في أعقاب تطورات تاريخية كثيرة وعميقة من بينها الانترنت، وقامت بربط الناس أفراداً وجماعات وشعوباً ودولاً بروابطَ ثقافية وسياسية وأمنية واقتصادية وعلمية وبيئية مشتركة، ما جعل كلَّ شعوب الأرض واقتصادات كل الدول تعتمد على بعضها، وتتكامل مع بعضها بعضاً.

في عصر المعرفة الآخذ اليوم في التكوُّن، والذي يطلق عليه أحياناً اسم عصر المعلومات، وأحياناً أخرى عصر العولمة وعصر ما بعد الصناعة، فقد أصبح للمعرفة والوقت دورٌ أكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع من أي زمن مضى. إذ إن التحول من نمط إنتاج البضائع إلى نمط إنتاج المعلومات والخدمات المؤسَّسة على المعرفة والتخصص العلمي الدقيق جعل الوقت أهم الثروات التي يملكها الإنسان المعرفي جميعاً. ولما كانت صناعة المعلومات وتصميم شبكات الاتصالات والمواصلات ونظم الإدارة وبرامج الكمبيوتر تقوم على العلم والتكنولوجيا الصناعية المتخصصة، فإن المعرفة أصبحت أهمَّ الموارد الإنتاجية وأكبر مصادر الثروة على الإطلاق، إذ أصبحت إمكاناتها تعادل إمكانات رأس المال والموارد الطبيعية

معاً. إلا أن ارتفاع تكلفة الحصول على المعرفة من النواحي المالية والزمنية جعل المعرفة تصبح واحداً من أهمّ العوامل التي تقوم بتعميق الفوارق الطبقية، وخلق الفجوات الاجتماعية الثقافية بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمعات الإنسانية المختلفة، المتجاورة منها والمتباعدة على السَّواء.

وفي الواقع، أدَّت ديناميكية الحياة عامة، وسُرعة تراكم المعرفة والتطور التكنولوجي، والتحول الثقافي والاجتماعي والتلاقح الفكري، والانفتاح على العالم إلى تفتيت كل الثقافات الوطنية وتجزئة كل المجتمعات القومية. لهذا أصبح من الصعب الحديث عن مجتمع وطني أو مجتمع قومي، كما أصبح من الأصعب الحديث عن ثقافة وطنية أو ثقافة قومية. وقد ترتب على هذا التطور غير المسبوق دخولُ مفهوم الهُوية في أزمة عميقة، وشعور كل الثقافات التقليدية والشعوب النامية بالقلق على التراث، والخوف من التيار العولمي الذي يهدِّد وحدة كل مجتمع وخصوصية كلِّ ثقافة وطنيةٍ وقومية.

إن طبيعة مهنة الزراعة وبساطتها جعلتْ بإمكان المجتمع الزراعي أن يقوم بعمليات الإنتاج العادية مستخدماً عَمَالة غير ماهرة، وعُمَّالاً زراعيين لا يحترمون الوقت بالمعنى المتعارف عليه اليوم، ولا يقدرون قيمته كما يجب. كان المهم أن لا يتأخر الفلاح عن المواسم الزراعية كثيراً، وهذه مواسم كانت ولا تزال في غاية المرونة. كما كانت المعارف في حينه بسيطة ولا تزيد كثيراً على كونها حصيلة تجارب حياتية يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، ويمكن الحصول عليها من خلال التعرف إلى التقاليد الشعبية واتّباع الحِكمة المألوفة. في العصر الصناعي، أصبح من الضروري توفرُ عَمَالة ذاتِ مهاراتٍ فنية جيدة وعُمال يحترمون الوقت ويلتزمون به بدقة، ويراعون نظام المصنع، ويقدرون أهمية الإنتاج والكسب المادي. وهذا تطور تسبب في جعل المعرفة تكتسب أهمية خاصة، فيما جعل العامل الصناعي أكثر وعياً بحقوقه وموقعه من حياة المجتمع الذي ينتمي إليه ودوره فيه. وقد نتج عن ذلك ظهور وعي طبقيّ في المجتمع الصناعي عامة، وظهور الاتحادات العُمَّالية واستحواذها على نفوذٍ سياسي واجتماعي واسع.

أما في عصر المعرفة، فإن العامل المعرفي أصبح بحاجة كبيرة لمهارات فنية، ومعارفَ علمية، ومواقف إيجابية من العمل والوقت والنظام. لذلك لم يعد بإمكان عامل أن يكون مشاركاً في صناعة المعرفة من دون أن يمتلك معارفَ علميةً ومهاراتٍ فنيةً وقيماً اجتماعية ثقافية ومواقف مميزة لا يكتسبها العامل عادة إلا من خلال التعليم الرسمي، والتدريب العملي، والانغماس الشخصي في التحصيل العِلمي والتخصص الدقيق. وفي الواقع، أصبح العامل المعرفي رأسمالياً بما يملك من معارفَ ومهارات نادرة؛ فالمعرفة التي يملكها ذلك العامل يمكن استثمارها في أماكنَ مختلفة، وبأشكال متعددة تعود على صاحبها بعوائدَ مادية ومعنوية مجزية، وتُعفيه من الحاجة لدفع رِشوةٍ لمسؤول، أو التنازل عن بعض كرامته من

أجل الحصول على فرصة عمل مناسبة. إلا أن المعرفة قادت المعرفيَّ، من حيث لا يدري، لأنْ يصبح جوّالاً يتنقل من شركة لأخرى، ومن مكان لآخر، ومن بلد لآخر بحثاً عن فرصة عمل أفضل ودخل أوفر. وهذا أضعف شعور المعرفيّ بالانتماء إلى بلد معين والالتزام بقضيةٍ دون غيرها، ما جعَل من الصعب تنظيمه في اتحادات عُمَّالية، أو ربطه بفكرة أيديولوجية.

إن ارتباط المعرفة بالثروة قديمٌ قِدَم التاريخ نفسه، إذ كانت المعرفة القائمة على السحر والشعوذة أداة لكسب العيش والاحتيال على العامة من الناس والسيطرة عليهم. وقد تطورت علاقة المعرفة بالثروة إيجاباً مع توارد الأيام وتتابع السنين، حيث أصبحت المعرفة التكنولوجية في عصر الصناعة أهم وسائل زيادة الإنتاج ورفع إنتاجية العامل والآلة، إلى جانب إنتاج أدوات تكريس القهر وتحقيق النصر الفنية والعسكرية على السواء. أما اليوم، فإن المعرفة المؤسَّسة على العلم أصبحت أساس الثروة والقوة في المجتمع، كما أصبحت الثروة في ضوء ارتفاع تكلفة التعليم النوعي الوسيلة الأهم للحصول على المعرفة. وبسبب هذا الترابط الوثيق بين الثروة والمعرفة، أصبح من الصعب على الفقير الحصول على المعرفة، وبالتالي الحصول على وظيفة جيدة تمكِّنه من العيش حياة كريمة وتكوين بعض الثروة، بينما أصبح من السهل على الثريّ الحصول على تعليم معرفيٍّ يؤهّله للحصول على فرصِ عملٍ جيدة، وتكوين المزيد من الثروات، والاستحواذ على المزيدِ من الامتيازات الاجتماعية.

إن التزايد المستمرَّ في تكلفة التعليم المعرفي يؤدي اليوم إلى حِرمان أغلب الطلبة من الحصول عليه، إذ أصبح التعليم المعرفي الجيد مقصوراً على الأثرياء وأبنائهم والنابغين إلى حد بعيد. وهذا يجعل من الضروري قيام الدولة بالتعاون مع مؤسسات المجتمع المدني بتوفير التعليم المعرفيّ في كل بلدٍ عربي، والبحث عن الموهوبين والطموحين والعناية بهم، والقيام بتوفير فرص التعليم المعرفي لهم، وتنمية مواهبهم وقوى الخلق والابتكار والإبداع لديهم، وغرس قِيم احترام الوقت والعمل والحياة في عقولهم.

إن العناية بالموهوبين ليس ترَفاً اجتماعياً، بل حاجة مجتمعية وإنسانية في غاية الأهمية، لأن مستقبل الوطن والأجيال القادمة والشعب أصبح يتوقف على كيفية تعامل الأمة مع ما لديها من مواردَ بشرية ومواهبَ خلاقة، وذلك من أجل تكوين رأسمال بشري بإمكانه الإسهام في عملية التنمية وتحقيق التقدم المجتمعي بأشكاله المختلفة. كما أن الاهداف الإنسانية التي تسعى البشرية إلى تحقيقها، خاصة في مجال الأمن والرفاه والحرية والاستقرار ليس بالإمكان تحقيق أي منها من دون معرفة وتراكم معرفي يسهم في إحداث ما هو مطلوب وضروري من تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية.

إن نظرة سريعة إلى عالم اليوم سوف تكشف أنه لا يوجد مجتمع معرفيٌّ فقير، فيما لا يوجد مجتمع جاهل ثري؛ كما أنه لا يوجد مجتمع معرفيٌّ في العالم غير ثري، ولا يوجد مجتمع جاهل غير فقير. لذلك نلاحظ أن الفقر يلدُ الجهل، والجهلُ يغذِّي الفقر، والثروة تلدُ المعرفة، والمعرفة تغذّي الثروة. وبينما يَسير الثريُّ والمعرفيُّ في الشرق والغرب على السواء بسرعة إلى الأمام نحو الاستحواذ على المزيد من الثروة والمعرفة والقوة والنفوذ، يتراجع الفقير والجاهل والضعيف من الأفراد والشعوب والدول باستمرار، وتزداد فجوة المعرفة والثروة والثقافة التي تفصل الاثـنين عن بعضهما، داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات الإنسانية المختلفة.

29

حياة الاقـتراض

تشير تجربة الحياة إلى أنه ليس بإمكان شخص أن يعيش حياته على الديون، يقـترض من الزمن وقتاً إضافياً يهدره، ويقـترض من البنوك مالاً ينفقه على حياة بذْخٍ وكسَل دون أن يستثمر جزءاً منه. إن من المؤكد أن يكتشف مثل ذلك الشخص بعد فترةٍ قصيرة أنه لم يعُد بإمكانه تسديد الأقساط المتراكمة من الديون، وأن الوقت يسرقه دون إنجاز يذكر، وأنه لم يعد باستطاعته أن يقـترض المزيد من المال أو الوقت كي يواصل حياته كالمعتاد. نتيجة لذلك، يجد الشخص المعنيّ نفسَه مضطراً لإعلان إفلاسه، والبدء بإعادة بناء حياته من جديد ضِمن عملية تُحيط بها المشاكل والشُّبُهات. وفي ضوء ضعْف الإمكانات وعدم توفر الوقت الكافي، تضعُف حوافز العمل واحتمالات النجاح، وتبدو التجربة الجديدة كأنها تُبحر في بحر هائج بلا بوصلة. مع هذا، من حق كل إنسان أن لا يُحرم من فرصة جديدة في الحياة، لكن من واجبه في المقابل أن لا يـيأس، لأن الياس يقود إلى الاحباط ويضمن الفشل. لذا كان على كل إنسان أن يتعلم من أخطائه، وأن يحاول تجاوز الفشل، وأن لا يسمح للإحباط بالتسلل إلى حياته، فالإحباط يعكِسُ موت الإنسان حيّاً، فيما يعكس الأمل تطلع الإنسان إلى فجرٍ جديد مُفْعَم بحب الحياة والحرية والتفاؤل.

إن حال أمة تعيش على أمجادِ ماض غابر يشبه كثيراً حال إنسان اقترض ما كان باستطاعته أن يقترضه من وقت ومال حتى أوشك على الإفلاس والوصول إلى نهاية الحياة. لكنَّ الأمم، وعلى عكس الأشخاص الذين يصلون إلى حافة الإفلاس، يصعُب عليها إدراك لحظةِ انتهاء زمن الاقـتراض وانتهاء حِكمة الماضي، ما يجعلها تـتجه نحو لوم الآخر، والتباكي على ما فات مِن وقتٍ وما ضاع من فرص. لكنَّ البكاء على الماضي يؤدي إلى تبديد المزيد من الوقت، وضياع المزيد من الفرص، وتعميق جراح الأمة المعنية، ودخولها فعلياً مرحلة الإفلاس الحضاري. هناك أممٌ مثل الصين اكـتشفت بعد حين أنه ليس لدى الماضي شيءٌ يمكن اقتراضه، وأن حكمته لم تعد صالحة للتعامل مع الواقع، أو قادرة على مواجهة تحديات المستقبل، الأمر الذي دفعها نحو رسم صورة للمستقبل الذي تريده، والعمل على صنعه بالسرعة الممكنة. وهناك أمم مثل الأمة العربية تتجه نحو الغوص في أعماق الماضي أكثر فأكثر كلما ابتعد الماضي عنها، وذلك على أمل أن تعثُر على كنز في باطنه ينقذها من الإفلاس، ويُمكِّنها من مواصلة حياة الاقتراض غير المنتجة. إن أمة تفشل في إدراك لحظة انتهاء زمن الاقـتراض، وإفلاس حكمة الماضي ونُضوب كنوزه

وعبره القابلة للاستخدام مجددا، هي أمة عاجزة عن إدراك معنى الإفلاس ومعنى الزمن، وبالتالي غير قادرة على تجاوز الإفلاس، ومواجهة تحديات الحياةِ والنهوض، ومعايشة الزمن.

تشير تجربة التاريخ وعملية تطور المجتمعات الإنسانية وتـتابع الحضارات إلى أنه ليس بإمكان أمة أن تستحضر ماضياً قضَى نحبه، أو أنْ تبني مستقبلاً في صورة ماض انتهى زمنه. في المقابل، تشير تلك التجربة إلى أن كل شعب متعلم واعٍ استطاع أن يصنع مستقبلاً جديداً يلبي رغباته، ويتجاوب مع طموحاته، ويمكنه من معاودة مسيرته الحضارية بثقة. فوعيُ طبيعة المكان والزمان وحقائقه يجعل بإمكان كل شعب تحديدَ التحديات ومواجهتها بشجاعة، واغتنام الفرص المتاحة. لكن على كل شعب يريد أن يصنع مستقبلاً جديداً أن يعترف أولاً بإفلاس كنوز الماضي وعبره، وانـتهاء حكمته، وأن يقوم ثانياً بتجميع قِواه ضمن جُهد جماعي لتشيـيد مستقبل يقوم على أساس معطيات الواقع وإمكانات المستقبل. إنّ مَن يُهمل المستقبل يعطي لذلك المستقبل ما يكفي من المبررات لإهماله ونِسيانه، وإن من يعيش حياته في الماضي يعطي لذلك الماضي ما يحتاجه من أسباب ليستهزئ به، ويسخر من سَذَاجَته وغَبائه.

إن أمة لا تـتوقف عن الحديث عن ماضيها وتَعداد أمجادها الغابرة هي أمة ضلَّت طريقها، تحلم بعالم افتراضي ليس له وجود ولن يعود... إنها أمة لا تملك ما يكفي من المعرفة والوعي لفهم الواقع، أو تخيل شكل المستقبل، وما يحمله من فُرصٍ وتحديات، آمال وأحلام وأزمات.

حين يصل المستقبل مع قطار الزمن الذي لا يتوقف عن المَسير، تصل معه عواصفُ تغيـير عاتية تدق أبوابَ كل الأمم والشعوب التي تمر عليها، وتُحطِّم الكثير من تلك الأبواب والأسوار المحيطة بها. ولمَّا كان من طبع قِطار الزمن أن يصل فجأة ويرحل ببطء، فإن الأمم والشعوب التي يمر عليها يحرمها من فرصة التفكير في كيفية النجاة من عواصفه العاتية، ويَفرض عليها أن تـتصرف بسرعة، أحيانا بلا وعي كي تواجهَ التحديات المعنية، وتـتحاشى الغرق. لذلك نلاحظ أن كل أمة تعيش على وقت مقترض وماض قضى نحبه لا تستيقظ من سباتها عادة إلا على وقع أحداث كبيرة لا تملك القدرة على مواجهتها. في ضوء ذلك، تـندفع الأمم المعنية في كل اتجاه سعياً لإيجاد شيء تستعين به، وزمن يقرضها بعضَ الوقت لتـتدبر أمورها، لكن من دون جدوى. إذ لا يوجد زمن على استعداد لإقراض أمة أيَّ وقت إضافي فيما تعيش في زمن غير الزمن، لأن مثلَ تلك الأمم لا تملك ما يكفي من الوعي والمعرفة لفهْم المتغيرات على أرض الواقع، وكيفية التعامل معها بكفاءة. وهذا يعني أن كل أمةٍ تعيش في الماضي، ومن أجل الماضي يفوتها قطارُ الزمن، ويتركها خلفه تواجه عواصفَ لا ترحم.

ولمّا كان قطار الزمن يصل محطة تلك الأمم بشكل مفاجئ، ويرحَل عن أرضها ببطء شديد، فإن الأمم المعنية تجدُ نفسَها عادة في مواجهة عواصفِ تغيير عاتية تهُزُّ كيانها، وتضعِف ثقتها بنفسها، وتشغلها عن التفكير في كيفية معالجة مشكلاتها المستعصية، وتجاوز الزمن الذي تعيش فيه لصنع مستقبل جديد. لذلك نلاحظ أن هناك أمماً استطاعت ان تنهض من كبوتها تحت وقع التحديات، وأن تدخل الزمنَ من أوسع أبوابه؛ وهناك أمم أخرى استمرأت البكاء على الأطلال، والعيش راضية في حالة إفلاس مستمرة، تعتمد على معُوناتٍ غيرها من الأمم الغازية والقروض المشروطة؛ وهذه أمم طامعة تستهدف أن تفرض عليها الخُنوع والتبعية، فيما تقوم بسرقة أموالها ومواردها الطبيعية والبشرية.

30

التوقعات الشعبية

يشير مفهوم التوقعات الشعبية إلى الحالة النفسية العامة التي يشعر بها معظم المواطنين حين تتحسن ظروفُ الحياة المعيشية والأحوال المادية، أو تسوء تلك الظروف والأحوال بشكل عام. وترتفع التوقعات الشعبية عادة نتيجة لحدوثِ نمو اقتصادي ملحوظ في المجتمع، أو بسبب قيام السُّلطة بمحاربة الفسادِ والاستبداد، والتوجه نحو الاستثمار في التعليم والاقتصاد الوطني، أو بسبب تحرُّر الشعب والوطن من هَيمنة قوى اقتصادية داخلية أو خارجية تقوم باستغلال ثرواته لحسابها. لكن تحسُّنَ ظروف الحياة المادية والأحوال الاقتصادية يُسبّب عادة اتساعَ فجوة الثروة بين الأغنياء والفقراء، وزيادة وعي الجماهير بوجود تلك الفجوة واتّجاهها إلى النمو المضطرد. وهذا من شأنه إشاعة شعورٍ عام بين الفقراء وذوي الدخل المحدود بأن الحياة أصبحت أسوأ مما كانت عليه في الماضي القريب وأقلُّ عدالةً من السابق، مما يؤدي إلى حدوثِ غضب قد يصل إلى حدِّ التطرف والثورة على النظام القائم.

كان الفلاح البسيط في عُهود الإقطاع البائدة يعمل ولا يسأل، لأنه كان قد تعود على وجود فَجْوة كبيرة في الثروة وملكية الأراضي بين المزارعين والإقطاعيين. ولما كانت القناعة المستمدة من الدين والتقاليد بالنسبة لذلك الفلاح هي أساس السعادة، فإن الإيمانَ بالقضاء والقدر والحظ أصبح المبدأ الأساسيَّ الذي لا يقبل التأويل أو الجدل، مما جعَل الفلاح يعيش معظمَ سنوات العمر راضياً بنصيبه المتواضع من الحياة، مؤمناً بأنه لا يستطيع أن يغير موقعَه الاجتماعيَّ كثيراً مهما فعل. من ناحية أخرى، كان الإقطاعي والفلاح يعيشان في عالمين متقاربين من حيث المسافة، ولكن متباعدان من حيث الثقافة، مما جعل من غير المتاح أن يتعرف أحدُهما إلى مستوى معيشة حياة الآخر وطريقة حياته عن قرب. إذ فيما عاش الفلاح في حقول لا تغيب الشمس عنها، عاش الإقطاعي في بيوت تعُج بالخدم، وتحيط بها الأسوار في عُزلة شِبه كاملة عن العالم المحيطِ بها.

على الرغم من هذا التفاوت في الثروة والوعي، كانت الفجوة في المُستويات المعيشية بين الفلاح والإقطاعي متقاربة، وذلك بسببِ غياب الأجهزة الكهربائية والإلكترونية ووسائل المواصلات والاتصال الحديثة، وصعوبة حفظ الأغذية واستيرادها من الخارج. الأمر الذي جعل كمية الطعام ونوعَيه الطعام

المتوفر للثري لا يختلف كثيراً عما كان متوفراً للفقير، سوى أنه كان بإمكان الثري شراء حاجته من محاصيل الأرض في بداية مواسمها، فيما كان على الفقير ان ينتظر أياماً حتى يتقادم الموسمُ ليشتري حاجته. إذ مع تقادم مواسم الخضراوات والفواكه، يزداد المعروض منها في الأسواق، وتنخفض أسعارها، مما يجعلها في متناول يد الفقير. ومع أن بيت الثري كان أكبرَ بكثير من بيت الفقير، وأكثرَ راحة بسبب سَعته، وكثرة الخَدم والعبيد فيه، إلا أن تلك الأمور لم تكن تعني الكثيرَ بالنسبة للفقير والفلاح، لأنه تربَّى على القناعة والبساطة والإيمان بالقضاء والقدر.

لكن تقدم التكنولوجيا الصناعية والخدماتية في العصر الحديث، وتوفر وسائل اتصال شعبية مرئية ومسموعة في معظم بِقاع العالم، جعَل بإمكان الفقير والعامل والفلاح أن يتعرف إلى مستوى حياة وطريقة حياة الثري والقوي، وما يتمتع به من نفوذٍ وثروة. الأمر الذي جعل بإمكان الفقراء تقدير حجم الفجوة التي تفصلهم عن الأثرياء والأقوياء، وتحديد طبيعتها ومكوناتها الرئيسية. وفي ضوء اتجاه الإعلام إلى التركيز على أداء الحكومات والمؤسسات العامة، وكشف ما تعانيه من نقص وترهُّل من ناحية، وتزايد احتكاك عامة الناس بتلك المؤسسات من ناحية ثانية، فإن الفقير والضعيفَ أصبح لديهِ ما يكفي من الوعي ليتعرف إلى العديد من أوجُه الفساد والاستبداد والاستغلال التي يمارسها الحُكام والأثرياء والأقوياء ضدَّ الفقراء والضعفاء. ولما كانت الأشياء التي يملكها الغني والقوي من وسائل راحة مادية وغير مادية تجسِّد في حدِّ ذاتها الهدفَ الأول للفقير والعامل، فإن هؤلاء الناس أصبحوا قادرين على تحديدِ ما لديهم وما يَنقُصهم من أشياء، وإدراك نوعية الحقوق التي يقوم النظامُ الحاكم ورجاله باحتكارها وحِرمانهم منها.

وهذا يعني أن حُدوث تطورات عِلمية وتكنولوجية يتسبب مع مرور الزمن في زيادة الوعي الشعبي العامّ، ما يجعل الجماهير تتململ، وتتجه نحو طرح الأسئلة والتساؤلات. ومع أنَّ التقدم العلمي والتكنولوجي يسبّب أيضاً نموَّ الاقتصاد وتحسُّنَ الأوضاع المعيشية بالنسبة لمعظم الناس، إلا أن الوعي الذي ينتج عن هذا التقدم يقود إلى رفع مستوى التوقعات الشعبية. وهذا من شأنه أن يُشجِّع الناس على المطالبة بحقوقٍ كانوا يجهلونها من قبل، بل كانوا محرومن منها فيما مضَى، وبالتالي التسبب في شعور عامة الناس بأن الأوضاع المعيشية أصبحت أسوأ مما كانت عليه في السابق، وذلك على الرغم مِن تحسُّنها. ويعود السبب في هذا الأمر الذي يبدو متناقضاً إلى أنَّ نظرة الناس إلى المستويات المعيشية تتصف بكونها نظرة نسبية، أي، قيام الفقير والعامل والضعيف بمقارنة ما لديه من أشياء مادية وثرواتٍ ووسائلِ راحة ومكانةٍ اجتماعية مع ما لدى الثري والقوي من تلك الأشياء.

ومع أن كل نمو اقتصادي يتسبب في توسعة فجَوات الدخل والثروة والعِلم التي تفصل الأثرياء والأقوياء عن الفقراء والضعفاء، إلا أن غيابَ البرامج الاجتماعية والتعليمية لمساعدة الفقراء يُسهم في نموِّ تلك الفجَوات وتعميق جُذورها في المجتمع. ومع زيادة الوعي الشعبي في ضوء ما تعيشُه كل المجتمعات الإنسانية من تحولاتٍ اجتماعية وثقافية واسعة، أصبح من غير الممكن سكوت الجماهير على تردّي أوضاعها المعيشية طويلاً. لذلك يقود التململ الشعبي عاجلاً أم آجلاً إلى تغيـير الهياكل الاجتماعية والاقتصادية بطرقٍ سِلمية أو ثورية، تتسبب أحياناً في تدمير الكثير مما هو قائم من منظومات قيمية ومؤسسات. لكن حين يقوم الثريُّ والقوي بالاستيلاء على فائض العملية الإنتاجية، والاستهانة بمشاعرِ الفقراء والعمال والبؤساء وأحوالهم المعيشية، فإنهما يجعلان التغيير ضرورة مجتمعية، وإعادة هيكلة النُّظم الحياتية قضية إنسانية، بل حَتمية تاريخية.

31

التوجهات المادية والقيم

يولد كل إنسان ولديه غَريزة التملك، ما جعَل الملكية الخاصة للأشياء ترافقُ الإنسان خلال كل مراحل حياته، وهذا جعله يندفع نحو العمل أو الاحتيال والسرقة بهدف الحصول على المال، وتكديس الثروات. ولمَّا كان النموُّ الاقتصادي والتطورُ الحضاري والازدهار الثقافي يَعتمد أساساً على التقدم العلمي والتراكم المعرفي والتكنولوجي والرأسمالي، فإن غياب الدافع المادي يؤدي عادةً إلى تراجع حوافز العمل والإنتاج، وتعطيل عمليات النموّ والتقدم المجتمعية. وعلى سبيل المثال، لو تم توزيع موارد وثروات بلد ما على جميع المواطنين بالتساوي لضعُفت حوافز الإنتاج كثيراً، ولكان من الصعب أن تجد شخصاً لديه الاستعداد للعمل لدى شخص آخر، وهذا من شأنه أن يتسبب في تراجع وتيرة التقدُّم المجتمعي. لكن الملكية الخاصة لوسائلِ الإنتاج والثروة كانتا أيضاً سبباً رئيسياً من أسباب شُيوع الاستغلال والاستعباد والظلم على مدَى العصور.

تشير سجلات التاريخ إلى أن نزعة المُلكية الخاصة تطورت لدى الإنسان مع تتابع العصور، بدءاً بالمجتمع الزراعي الذي ظهر قبل نحو عشَرة آلاف سنة. إذ بينما لم يستطع المجتمع القبلي بلورة مفهوم المُلكية الخاصة بسبب طبيعة حياته البسيطة، ونمط إنتاجه الذي اعتمد أساساً على التنقل والرعي والصيد، إلا أن حياة الاستقرار الزراعية قادت المجتمعَ الزراعيَّ إلى تطوير مفهوم الملكية الخاصة. إذ إن استقرار المجتمعات الزراعية في أماكنَ محددة، واعتمادها على الأراضي الخِصْبة ومصادر المياه لزراعة الأراضي، وريّ المزروعات دفعها إلى تطوير مؤسسة المُلكية الخاصة، والسعي لتملك أكبر قدر ممكنٍ من الأراضي ومصادر المياه وأدوات الفِلاحة. ومع قيام تلك المؤسسة وحُصولها على شَرعية مجتمعية، فإنَّ معالم المجتمع الزراعي أخذتْ تتغير بشكل مضطرد، ما أدَّى إلى ظهور هياكل اجتماعية جديدة شهدت ميلادَ العبودية والاستغلال والظلم والفقر. وقد شملت الملكية الخاصة الأراضيَ والبيوت وأدوات الإنتاج والحيوانات وأسبابَ القوة، والادّعاء أحياناً بمُلكية الحقيقة، وهو ادّعاء جاء مع ظهور الديانات.

بعد نحو عشَرة آلاف سنة من حياة الزراعة، انتقلت بعض المجتمعات الإنسانية إلى عصر الصناعة، وقد نتج عن هذا التطور تبدل نمط الحياة والإنتاج، وتنوع النشاطات الاقتصادية والمالية، وتغير الهياكل الاجتماعية والاقتصادية، وزيادة أهمية الملكية الخاصة في الحياة المجتمعية بوجه عام. وقد شملت

المُلكية الخاصة في هذا العصر جميع الأشياء التي ملكها الإنسان الزراعي، إلى جانب المال والمصانع والشركات والمعارف العلمية والتكنولوجية، والكثير من أسباب القوة. إن إمعان النظر في الأشياء التي تشملها الملكية الخاصة يكشف أن معظمها ماديّ، وحتى المعارف العلمية والتكنولوجية التي يملكها بعض الناس لم يكن بالإمكان تطويرها من دون أدوات وآلات ومعامل بحثية، كما أنَّ معظمها أصبح مسخَّراً أساساً لخدمة أهداف ربحية مادية.

إن فشل عصر القبلية وإخفاقه في بلورة مؤسسة المُلكية الخاصة جعل المجتمع القبلي يعيش حياته من دون طبقات اجتماعية، وبالتالي لم يشهد ذلك المجتمع شيوعَ حالاتِ الاستعباد والاستغلال على نطاقٍ واسع. لكن ظهور المُلكية الخاصة في عصر الزراعة أدَّى إلى انقسام ذلك المجتمع إلى **طبقتين: إحداهما** ثرية تملك الأراضي ومصادرَ المياه، وتستغل الفلاحين والعبيد؛ **والثانية** فقيرة تعمل أغلبيتها لحساب الطبقة الأولى وخاضعة لها.

أما عصر الصناعة، وبسبب تنوع نشاطاته الإنتاجية والخِدمية وتكاثرها، فقد شهد انقسام المجتمع الصناعي إلى ثلاثِ طبقات: **طبقة** فقيرة شملت عمال الصناعة والفلاحين وخدم المنازل، **وطبقة** رأسمالية شملت مُلَّاك المصانع والبنوك والشركات الكبيرة وكبار رجال الدولة، **وطبقة وسطى** شملت أغلبَ الموظفين والحرفيين وصغار التجار ومُلاك المصانع الصغيرة. وقد شهد المجتمع الصناعي بسبب هذا الانقسام أشكالاً متعددة من الاستعباد والاستغلال، كان من بينها مشاركة المجتمع الصناعي الغربي بكلِّ طبقاته في المشروع الاستعماري الذي قام على استغلال الشعوب الفقيرة والضعيفة والاستيلاء على ثَرواتها. ومع الانتقال إلى عصر المعرفة، أصبح الإنسان الجديد أكثرَ طمعاً وميلاً لامتلاك كلِّ شيء تُطاله يداه، بحقٍّ أحياناً وبغير حق أحياناً أخرى؛ لأن الغاية في عصر الجشَع والفردية تبرِّر الواسطة.

وهذا يعني أن كل مجتمع جاء بعد العَصر القبَلي كان أكثر طمَعاً من المجتمع الذي سبَقه، وأكثر رغبة في الاستحواذ على مُلكية كل شيء مُتاح، وبالتالي أكثر مادية. ولما كانت عمليات كسبِ الأموال وتوظيف الثروات تُوجب استخدام البعض من الناس، وتوجيه أسباب القوة للتفرقة بحق آخرين والهيمنة عليهم، وحرمانهم أحياناً من حقوقٍ وفرص كثيرة، فإن كل مجتمع جاء بعد العصر القبلي كان أكثر مَيلاً لاستغلال الآخر، وأقلّ احتراماً لمبادئ المساواة والعَدالة الاجتماعية، وأكثر ابتعاداً عن القِيم ذات الصبغة الإنسانية. مع هذا، لا بد من الإشارة إلى أن عصر الصناعة شهد إلى جانب التطور المادي، حدوثَ تطورات ثقافية وعِلمية وفلسفية كبيرة أعطت ميلاداً لأفكار إنسانية كثيرة مثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.

إن التوجهَ الفردي المحمومَ نحوَ المادة الذي يشهده العصر الحالي، وقيام كل مجتمع أقلّ رفاهية بتقليد المجتمعات الأكثر رفاهية، جعل المظهر الاستهلاكي يَطغَى على الجوهر الثقافي والأخلاقي، الأمر الذي كان سبباً في تراجع القيم في كل مجتمع. من ناحية ثانية، تسبب السعي الحثيث لامتلاك الأموال وتكديسها والاستيلاء على أسباب القوة في قيام النُّخب السياسية والاقتصادية والإعلاماتية بسلب جزء كبير من حقوق المواطنين، متجاوزين بذلك القوانينَ ومبادئَ العدالة والمساواة المعترف بها. نتيجة لهذه التطورات، أخذت أعدادُ الفقراء تتزايد، بينما كان الاهتمام بأوضاعهم المعيشية والنفسية يتراجع، ما اضطرَّ الكثير منهم إلى العيش حياةَ بؤسٍ ومذلة، يتخلفون كل يوم بسببها عن ركب الحضارة الإنسانية، ويتحولون إلى عبيدٍ في غياب مؤسسة العبودية. وفيما أصبحَ الثريُّ والقويُّ لا يتوقف عند حدود قِيم أو مبادئ في سعيه الحثيثِ لامتلاك المزيد من الثروة وأسباب القوة، أصبح الفقير لا يتوقف كثيراً عن حدود كرامة أو أمانة في سعيه المستميت للحفاظ على بقائه، وامتلاك ما لا يستطيع أن يشتريه بماله. وهكذا، أصبح الجشع والحسد والسعيُ للتفوق على الغير من الناس بالنسبة للثري والقوي، والشهوة والغَيرة والحاجة ومحاكاة الثري بالنسبة للفقير هي أهم الدوافع التي تحفِّز الناس على العمل والاستثمار والاستغلال، وأحياناً الغشّ والسرقة والاحتيال، وتقوم بتشكيل العلاقات في المجتمع على أساس مصالحَ ومطامعَ لا علاقة لها بقِيم.

إن استمرار هذه الأمور على حالها من المؤكد أن يُحوِل أثرياء العالم إلى أشباهِ ملوك يعيشون حياة ترف ولهوٍ وأمنٍ في عُزلة عن الفقراء، ويُحول نسبة كبيرة من سُكان العالم إلى فقراء يعيشون في أحياءَ بائسة موبوءةٍ بالمرض والجريمة. ولمَّا كانت قدرات الفقراء على الشراء ضعيفةً بسبب قلةِ ما لديهم من مال، وأن الأثرياء مُستهلكين ضعيفين بسبب قلة عددهم، فإن إمكانات الاقتصاد الرأسمالي العالمي على الإنتاج ستبقى متفوقة على قُدرات الأسواق العالمية على استيعاب ما يتم إنتاجه، كما أن معدلات نمو ذلك الاقتصاد ستبقى ضعيفة. وهذا من شأنه أن يتسبب في وقوعَ أزمات اقتصادية ومالية بين الحين والآخر، تلحق أضراراً كبيرة بالاقتصاد العالمي، والأوضاع المعيشية لأغلب سكان العالم. وقد جاءت أزمة الركود الاقتصادي الكبير في أواخر عام 2007 لتثبتَ عجز نظام السوق الحر على توزيع ثمار عمليات الإنتاج والتقدم العلمي على المشاركين فيها بعدالة، وعدم قدرته على توفير فرص عمل للعاطلين من العمل، ونجاحه في توسعة فَجَوات الثروة والدخل والعلم بين أثرياء العالم وفقرائه.

إنَّ النُّظم الاقتصادية التي تقوم على المادة دون غيرها من مبادئ هي نظم غير عادلة، وكلُّ نظام غير عادل هو نظام غير كفء، لأنه يحرم الكثير من أفراد المجتمع من فرص تنمية قدراتهم العقلية

والبدنية، وتطوير مهاراتهم ومواهبهم، وتوظيفها لإشباع رغباتهم ورغبات غيرهم من البشر، وتمكينهم من تجنّب مذلة التنازل عن كرامتهم. إن كل نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي لا يحرص على الكفاءة والعدالة هو نظامٌ قاصر ليس بوسعه التجاوب مع احتياجات المجتمع والبيئة، وفاسد، لأنه لا يهتم بقِيم أو أخلاقيات، وبالتالي لا يستطيع مواصلة النموّ والتسلط مهما استخدم من وسائل القمع والكبت، ومهما نجَح في تزييف وعي الجماهير وتخويفها.

32

صراعُ العقل والجهل

إن من يدرس حال العرب اليوم يلاحظ أنهم تنازلوا عن عقولهم إلى حدٍّ بعيد، فالبعض منهم يتصرف بناء على غريزة شِبه حيوانية، فيما يتصرف البعض الآخر بناء على منظومة من التقاليد والقِيم والمعتقدات التي تلغي الحاجة للتفكير والعقل. وقد قامت أنظمة الحُكم العربية بتكريس هذه الحالة باللجوء إلى كبْت حرية الفكر والتعبير عن الرأي، وإغلاق نوافذِ العلم والثقافة وأجوائها خوفاً من تسلل الفكر الإنساني إلى المدارس والجامعات العربية، وعَزل المفكرين والمثقفين الملتزمين بقضايا الوطن والشعب. وهذا يعني أن هناك قانوناً غير معلن ينُصُّ على تعطيل العقل العربي، ومصادرة الحريات العامة، وإرهاب العلماء والمفكرين، والتشكيك في إيمانهم وعلمهم، وحرمانهم من الوصول إلى الجماهير لطرح أفكارهم عليها والتحاور معها. إلى جانب ذلك، يقوم رجال الدولة والقيادات التقليدية، بمن فيهم فقهاءُ السلاطين، بالعمل على تعزيز ما لدى الجماهير من ترسبات تراثية مُهْتَرِئة وقناعات تجاوزها الزمن وتكريسها في النفوس، والتوجه نحو استعباد الضعفاء والفقراء والنساء، وتزييف وعي عامة الناس وتجهيلهم، ومصادرة إرادتهم.

إنّ الكفاح ضد جماعات التكفير وفكرها، وأحكام الإعدام ومن يُقرها، واستبداد أنظمة الحكم وفسادها أصبح قضايا وجودية بالنسبة للشعوب العربية التي تعيش في هذا العصر الرديء. فقِوى الشر من حُكام مستبدين، ورأسماليين استغلاليين، ومذهبيين عنصريين، وتكفيريين مهووسين بالجنس، وفقهاء سلاطين ضالين لن تتوقف عن تزييف وعي عامة الجماهير واستغلال جهلها، وحِرمانها من حقوقها وكرامتها. إن النضالَ من أجل تحرير المرأة وتمكينها من استعادة كرامتها وحقوقها كاملة هو واجبٌ إنساني وأخلاقي وديني، لأن تحرير المرأة يضمن تنشئة جيل جديد يعي معنى الحرية وأهميتها، ويطالب بحقه في الحصول عليها. إن قوى الشر التي تعبَث اليوم في مصير الوطن قادرة على استنساخ نفسها، وتجديد شبابها، وتزوير هُويتها من يوم لأخر، ما يوجبُ التصدي لكلّ أنواع الظلم والقهر والاستبداد والاستغلال والإقصاء والفقر والجهل، وعدم مهادنة أيّ طرف من أطرافه. وهذا يعني أن على الشعوب العربية وقياداتها الفكرية الواعية أن تدرك أنه لا يمكن هَزيمة قِوى الشر إلا بتعرية هُويتها أولاً، وكشف حجم جرائمها ثانياً، وتحليل أساليب ممارستها للظلم والاستبداد ثالثاً، وتحديد مصادر تمويلها رابعاً، وإعداد خطة عمل جماعية سلمية لمواجهتها. كما أن على تلك الشعوب وقادة الفكر فيها أن تكشف هُوية القوى التي تقوم بإيجاد المبررات

الفقهية والتراثية لمختلف الجرائم التي ترتكبها أنظمة الحكم والجماعات التكفيرية التي لا تخدم سوى أعداء الأمة. ومع طغيان الظلم وضخامة التحديات التي تواجهها الشعوب العربية، إلا أن الوسيلة الأكثر فاعلية وإنسانية هي التصدي لكل الجرائم، والمطالبة بكل الحقوق بطرقٍ سلمية تحافظ على الأوطان والإنسان، وتحظى باحترام العالم ودعم قوى التحرر والعدالة فيه.

إن تكريس ظلام الجهل، وقسوة الفقر، ومذلة الضعف في نفوس الجماهير وعلى أرضها هي أهم الأسلحة التي يستخدمها المستبدون من سلاطين وفقهاء وتكفيريـين وتقليديـين لضَمان بَقاء معظم الجماهير العربية غائبة عن الوعي، خائفة من الله والسلطان، مسكونة بالحِرمان الجنسي، ومشغولة بقَضَايا يومية وجودية تُبعدها عن الفكر والتفكير في أمور الحياة والمستقبل.

إن التاريخ، كلَّ التاريخ، هو صراع بين قِوى العقل والعلم والحرية من ناحية، وقِوى الجهل والخرافة والأيديولوجية من ناحية ثانية، وإن هذا الصراع لم يَنـتـهِ في بلدٍ من بلاد العالم إلا بعد أن تمت إنارة العقول، وأماكن العبادة والأزّقة المعتمة بالعلم والحرية وحب الحياة والكهرباء.

إن العصر العربي الحالي هو عصر انحطاط بكل معاني كلمة انحطاط وقسوتها؛ فالعصر يتصف بالابتعاد عن القراءة والفِكر، والإعجاب بالصورة الملونة والانجذاب نحوها. إن العصر الحالي هو عصر الانبهار، ليس بما يقول الفقيه في كتبه، وإنما بما يوحي به وهو يتسلّى بغطاء رأسه على شاشة التلفزيون، ليس بلحنِ وكلماتِ أغنيةٍ جميلة لمطربةٍ مشهورة، وإنما بشكل المطربة وما توحي به حركاتها من أنوثةٍ وإثارة جنسية، ليس بفكر عالم، وإنما بخرافة محتال وأسطورة جاهل، ليس بمعجزة علمية، وإنما بمعجزة غيبية. إن غياب القراءة والفكر يجعل نجومية الصورة تَطْغَى على نُجومية العقل والمنطق والعلم معاً. لذا كان علينا أن نعمَلَ على هدْم نُجومية الصورة والعِقال والغَطْرة والسروال ومصادر الإثارة الجنسية، وأن نرفع نجومية العقل والعلم والفكر والخيال. نعم، هذه مهمة صعبة، لكن لا خيار لنا سوى هذا الخيار، لأن التهرب منه أو تأجيله لن يعود علينا أفرادا وجماعات وشعوبا وأمةً إلا بالمزيد من الجهل والفقر والذل والعار والموتِ والدمار.

33

النجاح والفشل

تشير التجربة التاريخية إلى أن بعض الشعوب تـتمتع بقدرة كبيرة على التعلم من أخطائها، فيما لا يتمتع بعضها الآخر إلا بقدرة ضئيلة على التعلم من أخطائه. ويعود السبب في ذلك إلى أن معظم الشعوب لم تُطور قدراتها الذاتية على التعلم من تجاربها الحياتية، وبالتالي من أخطائها وأخطاءِ غيرها من الشعوب إلا حديثاً، لأنه لم يكن لدى شعوب الأزمنة القديمة الوسائل المطلوبة لتسجيل تجاربها والاطلاع على تجارب غيرها والتفاعل معها، كما أنه لم يكن من تـقاليدها مراجعة ما لديها من سِجلّات بين الحين والآخر، وكلما واجهتها مشكلة تحتاج إلى تفكير عَميق. وهذا جعَل تلك الشعوبَ تعتمد على ما يكون قد تكوّن لدى الأجيال المتعاقبة من ذاكرة جمعية تروي حكاياتها الشعبية وغزواتها، وما تكون قد مرت به من تجاربَ حياتية مميَّزة تتصف عادة بالمبالغة. وهذا يعني أن المجتمعات القبلية والمجتمعات الزراعية التقليدية عامة كانت ضعيفةَ القدرة على معرفةِ تاريخها، والتعلم من دروس الماضي وعِبره، ما جعل تاريخها يتكوَّن في أغلبه من حكاياتٍ وخُرافات وأساطير وتخيُّلات لأحداثٍ ربما وقعت وربما لم تقع على الإطلاق.

من ناحية ثانية، يشير التاريخ إلى أنَّ الشعوب التي آمنت بالقضاء والقدر والمعجزات والسِّحر كانت عموماً ضعيفة القُدرة على التعلم من تجاربها وتجاربِ غيرها من شعوب، لأن الإيمان بمثل هذه الأمور يدفع المؤمنين إلى الاعتقاد بأن ما يصيبهم من خير وشر إنما هو قدر كُتِب عليهم، أو أنه جاء نتيجة لحظوظ وصُدَف تاريخية، وظروف غير عادية لا يملكون حِيالها شيئاً. ولمّا كان تاريخ كل مرحلة حضارية يَحمل في طيَّاته الكثير من أسرار النجاح والإخفاق، فإن ضَعْف قدرات بعض الشعوب على دراسة التاريخ والتعرف إلى القوى المؤثرة في مساراته تسبب في حرمان تلك الشعوب من معرفة أسباب الإخفاق ودواعي النجاح. إن كل شخص وشعب لا يحاول أن يتعرف على دواعي النجاح حين تُكلَّل جهودُه بالنجاح، وعدم البحث عن أسباب الإخفاق حين يخفق ويفشل، لا يستطيع أن يفكر بشكل منطقي قائم على العلم والتجربة، وبالتالي لا يكون بإمكانه تعظيم احتمالات تكرار التجارب الناجحة، وتـقليل احتمالات تكرار التَّجارب الفاشلة في المستقبل.

يتصف العرب عامة بضَعف قدراتهم على التعلم من تجاربهم الحياتية وتجارب غيرهم من الشعوب، لأنهم يَميلون بطبعهم إلى نسيان الخطوات السليمة التي تـقودهم إلى النجاح كلما نجَحُوا، وذلك لاعتقادهم بأن النجاح يأتي بسبب القدر، أو حُسن الحظ، أو نتيجة لرضا الوالدين أو رضا الله عنهم.

من ناحية ثانية، يتجه العرب عامة إلى لوم غيرهم من الناس أو الدول كلما فشلوا وأخفقوا، لأنهم يتهربون من تحمل مسؤولية الفشل بدلاً من الاعتراف به والبحث في أسبابه، والعمل على عدم تكراره في المستقبل. ويعود السبب في ذلك إلى اعتماد العرب على ما لديهم من ذاكرة جمعية تعرضت على مر السنين للتصدع والتشوه، خاصة بعد نمو السكان ورحيل البدو والقرويـين بأعداد كبيرة إلى مُدن ليس من طبيعة تقاليدها الاجتماعية تكوين ذاكرة جمعية. نتيجة لذلك، استمر إيمان العرب بالقضاء والقدر والحظ بوصفها القوى الرئيسية المسؤولة عن النجاح والفشل، الغِنى والفقر، السعادة والتَّعاسة، الحرية والاستعباد. وفي ضوء تمسُّك العرب بتُراثهم القبلي والعشائري والقرَوي، وفشل نظام التعليم في تحويل الذاكرة الشفوية إلى ذاكرة مؤسسية، فإن العربَ أهملوا علومَ التخطيط والتنبؤ المستقبلي. ولما كانت الخبرة تأتي من التعلم من التجربة العملية، فإن تحسين فرص النجاح وتقليل احتمالات الفشل يحتّم برمجة عوامل النجاح وأسباب الفشل في العقل العربي والثقافة العربية والتربية المدرسية، بدلاً من النظر إليها بوصفها حظوظاً قد تـتكرر وقد لا تـتكرر.

إن الفعل ذو أهمية كبيرة في حياة كل فرد ومستقبل كل مجتمع يعيش في عصر الصناعة وما بعدها، لكن الكلمة ذات أهمية أكبر في حياة كل فرد ومجتمع يعيش في عصر القبلية والزراعة، خاصة في حياة مجتمعات عربية تعدّ لغتها أهم إنجازاتها الثقافية. وهذا يعني أن هناك حاجة لتطوير ضوابط تحكم الكلمة الشفوية والمكتوبة، بحيث يُحاسب صاحبها عليها حين يطلقها جُزافاً في سبيل التفاخر، أو من أجل النيل من سُمعة إنسان ناجح بغير حق، أو في محاولةٍ لتخوين وأحياناً تكفير بعض الناس لمجرد الاختلاف معهم في الرأي. وعلى سبيل المثال، هناك آلافُ العرب الذين منحوا أنفسهم لقب **"دكتور"** مع انهم لم يدرسوا في جامعة في حياتهم، وإن ما حصلوا عليه من شهادات هي أوراقٌ تحمل أختاماً صادرة عن **"دكاكين"** مسجَّلة تحت اسم جامعات في أمريكا وإسبانيا وغيرها، لا تُدرّس شيئاً بل تبيع **"شهادات"** لكلِّ مَن لديه بعضُ المال والكثيرُ من الشعور بالنقص. أما عملية تطوير الضوابط المطلوبة لضمان عدم الكذب والتزيـيف والاعتداء على حقوق الآخرين وحرياتهم فتأتي من خلال تطوير القوانين وتطبيقها بشكل عادل لا يستـثني أحداً.

إن الشعوب التي تـتمتع بقُدرة عالية على التعلم من تجاربها وتجاربِ غيرها من الأمم، هي شعوبٌ تـتمتع أيضاً بالقدرة على مواجهة التحديات. وفي ضوء زيادة الحياة تعقيداً وتشابكاً، فإن عِبر الماضي عامة

أصبحتْ جُزءاً من التاريخ المدوّن في الكتب، وليس المحفوظ على شكل ذاكرات جماعية في الصدور. لذلك نلاحظ نجاح بلاد مثل ألمانيا واليابان والصين وروسيا في مواجهة تحديات عصرها، بينما نشهد فشل العرب ومعظم شعوب أمريكا الجنوبية والقارة الإفريقية في مواجهة تحديات عصرها، وتجاوز ما أصابها من أزمات ومِحَن.

34

الفشل ولوم الآخر

اتّجه المفكرون الذين طوروا نظرية التبعية إلى اتهام دول الغرب الصناعية بربط اقتصادات دول العالم الثالث بالنظام الرأسمالي العالمي بروابطَ من التبعية حالتْ دون تحرُّرهم من قيود الفقر والتخلف. لذلك تسبّبت التبعية، كما يقول أتباع هذه النظرية، في تخلفَ دول العالم الثالث عامة، ومعاناةَ شعوبها من الفقر والجهل والمرض والحاجة. لكن التبعية، **وكما أوضحتُ في أكثر من كتاب صدر بالعربية والإنجليزية**، هي إحدى الحتميات التاريخية التي خلقتها عملية التطور المجتمعي عبر تتابع الحضارات. إذ إن تخلف الكثير من المجتمعات عن قطار الزمن بسببِ فُقدان القدرة أو الإرادة على اللحاق بالعصر، تسبب في تكريس تخلف تلك المجتمعات عن المجتمعات المتقدمة، وهذا حتم تبعيتها لها. وعلى سبيل المثال، حين انتقل المجتمع الأوروبي من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة، تحوَّلَ قطاع الزراعة إلى قطاع إنتاجي متخلف عن قطاع الصناعة وتابعٍ له، يَعتمد عليه اعتماداً كبيراً.

لكن استفادة قطاع الزراعة من نُظم الريّ الحديثة التي طوَّرتها الثورة الصناعية، ومن الأسمدة الكيماوية والبذور المحسّنة الأكثر إنتاجية ومقاومة للأمراض التي طورتها الحركة العِلمية حينئذ، مكَّنت المجتمع الزراعي في الغرب عامة من زيادة الإنتاجية، وتنويع الإنتاج واللحاق بالعصر. وما ينطبق على المجتمع الزراعي في الغرب ينطبق أيضاً على مجتمعات العالم الثالث الزراعية التي أصبحت، بحكم تخلفها عن قطار الزمن، تابعة للنظام الرأسمالي الصناعي العالمي ومعتمدة عليه. وهذا يعني أنه ليس باستطاعة مجتمع أن يتهرَّب من استحقاقات التبعية إلا إذا استطاع أن يعيَ هذا الدرس التاريخي، وينطلق منه، كما فعلت الصين، لتطوير اقتصاده وثقافته وتحقيق نهضة مجتمعية تتجاوز التبعية وتبعاتها.

إنّ لوم الغرب وتحميله مسؤوليةَ تخلف شعوب العالم الثالث جعَل منظري التبعية يُهمِلون، غالباً من دون وعي، دورَ الثقافات الشعبية السائدة في العالم الثالث في مقاومة التغيير وعمليات التطوير والتحديث، والقيام في الوقت ذاته بتسهيل خضوع الجماهير لنظم حكم دكتاتورية استبدادية فاسدة. وهذا يعني أن الثقافات التقليدية المنتشرة في معظم دول العالم الثالث تتحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية الفقر والجهل والعنف والاستبداد والفساد والتبعية التي تعانيها. إن منظّري التبعية، بدلاً من دراسة القِيم والتقاليد

والعادات والمواقف وطرق التفكير التقليدية، وتحديد دورها في مختلف أوجُهِ الحياة الاقتصادية والسياسية والعلمية، قاموا بالدعوة إلى فكِّ الارتباط بالرأسمالية العالمية والاعتماد على حصيلة ما لدى الفقراء من معارفَ وعلوم موروثة وطرقِ حياة تقليدية، وذلك بهدف تنشيط العملية التنموية، وتمكين الفقراء من استعادة إحساسهم بالسعادة. وهذا يعني أنّ منظِّري التبعية ربطوا عملية التحرُّر والتقدم والسعادة بالتخلص من التبعية للنظام الرأسمالي، علماً بأنهم يعرفون أنّ المجتمعات التقليدية مضطرة لاستيراد معظم ما تحتاجه اليوم من أدوية ومعداتٍ طبية، وأجهزة اتصال ومواصلات، وآلات إنتاجية من الغرب الرأسمالي.

ليس هناك شك في أن العاداتِ والتقاليدَ القديمة تشكل مصدرَ سعادة للشعوب التي تبحث عن القناعة بعيداً عن صَخَب الحياة الصناعية، لكنها سعادة مزيَّفة تنبع أساساً من انتشار الجهل وغياب الوعي بحقائق العصر. إنّ اتّباع أنماط حياتية تجاوزها الزمن لا يمكن أن يساعد أمة على استعادة مكانتها في عالم لا مكان فيه لضعيفٍ أو فقير أو جاهل. إن الثقافات القديمة وطرقَ الحياة التقليدية بإمكانها أن تعيد لأتباعها قدراً من الإحساس بالقناعة وراحة البال، لكنها لا تستطيع أن تحررهم من الفقر أو الجهل أو الاعتماد على النظام الرأسمالي. وفي الواقع، أصبح الاعتماد على التكنولوجيا الحديثة التي تنتجها المجتمعات الصناعية أقصر الطرق وأقلها تكلفة للحصول على متطلبات الحياة والإنتاج الأساسية، وتحقيق التقدم.

إن مما لا شك فيه أن دول الغرب الاستعمارية قامت في الماضي بربط اقتصادات الشعوب التي استعمرتها برباط من التبعية لاقتصاداتها الوطنية، إذ حولتها إلى أسواق استهلاكية لتصدير بضائعها، ومصادر للمواد الخام التي كانت الصناعات بحاجةٍ إليها. وفيما تسببت تلك السياسة الاستعمارية في تعقيد عمليات التنمية المجتمعية الوطنية وإبطائها، أسهمت في تمكين النخب السياسية والاقتصادية الوطنية من تكوين ثروات فاحشة على حساب أوطانها وشعوبها الفقيرة. من ناحية ثانية، فيما تتنازع الهيمنة على عالم اليوم قوى اقتصادية وسياسية وعسكرية كبرى، يقوم أثرياء العالم ومؤسسات الإعلام التي يسيطرون عليها بتزييف وعي الفقراء وتشويهِ ثقافاتهم، وسرقةِ تراثهم ومواردهم، والعمل على تثبيط عزائمهم. وهذا يعني ببساطة أنّ ما كان ممكناً في القرنين التاسعَ عشر والعشرين لم يعد ممكناً في ظل العولمة وحرية التجارة، واستيلاء العملية الإعلامية المعلوماتية على زمام عملية **صنع التاريخ** وتشكيل الثقافات.

إن تحميل قوى خارجية مسؤولية التخلف يمثل في أغلب الأحيان الوجهَ الآخر للتهرب من تحمل مسؤولية الفشل الذاتي، والذي يعكس تخلف الوعي وفساد النظام. لذلك كان على الشعوب التي تتطلع نحو تحقيق تقدم ونهضة أن تبحث أولاً عن دور ثقافاتها الشعبية والنخب الحاكمة في بلادها في تكريس التخلف وشيوع الفقر والجهل والفساد، وذلك قبل لَوم الأخر. لكن إيجاد الأعذار للفشل الذاتي أمر سهل؛ لأنه لا

يكلف الكثير من المال أو الجهد، فيما يصعُب إيجاد حلول عملية للمشكلات المجتمعية، لأن علاج المشكلات يحتاج إلى أموالٍ وجهود وفِكر وإرادة قلما وُجدتْ في مجتمع متخلف.

35

الصحوة

يقول الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانْتْ) الذي اشتهر في أواخر القرن الثامنَ عشر: **"الصحوة هي حدوث تغير جذري في العلاقة بين الإرادة والسلطة والعقلانية".** وفي ضوء الظروف الحياتية التي عاشها كانْتْ، فإن رأيه هذا جاء ليعبر عن الظروف الصعبة التي كانت تمرُّ بها دول أوروبا حينئذ، والتي اتصفت بشيوع الارتباك والتخبط والتحول المستمر، وفُقدان بُوصلة الإبحار في عين المستقبل. لقد كانت أوروبا في زمن كانْتْ تمر بفترة انتقال حضارية من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى النهضة، ومن الفقر إلى الرخاء الاقتصادي النسبي، وذلك بعد أن كانت قد نجحت في فصل الدين عن الدولة، والتحرر من سلطة الكنيسة وفِكرها. وهذا يعني، تبعاً لرؤية كانْتْ، أن الصحوة هي خروج المجتمع على التبعية الفكرية، وأوامر السلطة الدينية، والانتقال إلى مرحلةِ النضوج التي تعتمد على العقل والإرادة الذاتية والسلطة المدنية. في ضوء هذا التعريف لمفهوم الصحوة، هل يمكن وصفُ ما يجري في الوطن العربي من كبْت فكري وصراع أيديولوجي، وردة دينية، وخصخصة اقتصادية، وحروب مدمّرة تعمل على تمزيق النسيج الاجتماعي والثقافي لكل شعب عربي بأنه صحوة؟

تشير التطورات الجارية في الوطن العربي إلى ضعف السُّلطة المدنية أو غيابها، وطغيان التخبط السياسي والانحلال الأخلاقي والفساد الاقتصادي والاجتماعي على حياة المجتمعات العربية عامة، كما تشير إلى أن السلطة الحالية هي إما سلطة دينية تعتمد على فكرٍ يؤمن بأحكام أزلية مقدَّسة لا تعترف بتغير الظروف والأزمنة، أو سلطة عِلمانية تدعي احترام حقوق الإنسان فيما تمارس مختلف أنواع القَهر والظلم والكبْت والاستغلال. نتيجة لذلك، أصبحت إرادة الإنسان أداة مسخّرة لخدمة سلطة دينية غيبية، أو إرادة مسلوبة قامت السلطة العِلمانية بمصادرتها. وهذا يجعل الإنسان العربيَّ يشعر بالاغتراب في المكان الذي يعيش فيه، والغربة عن الزمان الذي يحاول أن يتعايش معه، وعدم الانـتماء إلى وطن لا يَعترف بحقوقهِ ولا يحترم إنسانيته، وانغلاق النوافذ التي يتسلل النورُ وأريجُ الحرية عادةً منها.

ويمكن القول إن التطورات التي يمر بها الوطنُ العربي اليوم تسبّبت في نقلَ الإنسان من واقع حياتيّ خيّم عليه ظلم السلطة المدنية والدينية فقط إلى واقعٍ تخيم عليه ظلامية فكرية دنيوية ودينية إلى جانب ظلم

السلطتين الدنيوية والدينية. لكن الإرادة الإنسانية لا يمكن إخضاعُها لأوامرَ خارجة عن ذاتها وتسخيرها لخدمة أيديولوجية دينية أو سياسية أو اجتماعية تقليدية أو اقتصادية مادية إلا إذا نجحت الأيديولوجية المعنية في تغيـيب عقل أغلب الشعب الذي تهيمن عليه، وتزييف وعيهِ الجُمَعي، وتلويث ضميره الفَردي بالفساد والجشَع والانـتهازية.

حين يفـقد إنسانٌ إرادته عن قناعة ترتكز على الإيمان بأيديولوجية، فإن ذلك الإنسان يغدو آلة بلا روح أو رأي حُر أو ضمير، يتحرك تلقائياً بناء على تعليمات عقل مُبرمج، يقود صاحبه إلى اتّباع أوامر تصدُر من سلطة عُليا تسكنُ خارج ذاته، قد تكون عسكرية أو دينية أو سياسية او تقليدية مستبدة. وبينما تقومُ السلطة المستبدة هذه عادة باحتكار السلطة، وتجميع كلّ السلطات في يدها، واستخدامها لكبْت تطلعاتِ الشعوب التي تحكمها، تقوم السلطات الدينية والتقليدية عادة بالعمل على بقاء الشعوب في مكانها تعيش خارجَ زمانها، لا تعرف غير مستنقعات الفقر والجهل والكبْت والتخلف. وهذا من شأنه في الحالتين تأجيلُ الصحوة لعقود أو قرون، كما حدث مع العرب الذين خرجوا من التاريخ الحضاري الإنساني بخروجهم من الأندلس قبل أكثر من خمسة قرون، وما زالوا يعيشون خارج زَمَـنهم. ويعود السبب في بقاءِ العرب خارج الزمن الذي يعيشون فيه إلى تسلطِ أنظمة حكم دينية ظلامية ودنيوية مستبدة وفاسدة، وقيام السلطتين بمصادرة إرادة الإنسان العربي وحريته، وقيادته بشكل أو بآخر إلى التنازل عن العقل والعقلانية.

إن توعية الضمير وتحريره من قيود السلطة، واستعادة الإنسان لإرادته الحرة لا يتم إلا إذا كان بإمكان ذلك الإنسان التعبير عما يؤمن به من آراء وأفكار في المجال العام بحرية تامة، وليس في المجال الخاص فحسبُ. وهذا يعني أن توعية الضمير وتحرير العقل لا يمكن أن يتحقـق إلا حين يكون باستطاعة الإنسان أن يقول ما يريد، ويفعل ما يريد من دون خوف، انطلاقاً من ضمير واعٍ، وعقل متحرّر. الأمر الذي يفـتح المجالَ لقيام المفكرين والعلماء الذين يتصفون بالانـتماء للوطن والشعب بتوظيفِ ما لديهم من علم وإرادةٍ حرة والعمل على توعية الناس الذين تم تزيـيف وعيهم، ومصادرة إرادتهم وشَلِّ عقولهم.

إن لجوء بعض الناس إلى التعبير عما يؤمنون به في المجال الخاص، والتكـتُّم على ما يؤمنون به في المجال العام، من شأنه أن يَخلق ازدواجية سلوكية وفكرية في المجتمع، تجعل من صاحبها إنساناً منافقاً يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يؤمن به. وهذا من شأنه أن يتسبّب في تشويهَ الضمير، وتـقويض قدرته على التميـيز بين ما هو أخلاقيٌّ وما هو غير أخلاقي، ما هو وطنيٌّ وما هو خيانة للوطن، ما يجب أن يقال، وما يجب أن لا يقال على المستوى العام.

وتشير تجربة الشعوب كافة إلى أن مَن ادّعوا العلم بأمور الغيب اتّصفوا بالجهل النسبي في أمور الدنيا، وأن الجُهَلاء في أمور الدنيا هم جهلاءُ في أمور العلم، ومَن هم جهلاء في أمور الدنيا والعلم يعيشون بلا إرادة حرة، وبلا ضمير واعٍ، ما يجعلهم أعداء لأنفسهم ولغيرهم من الناس. من هنا أخفقتْ كلُّ الأيديولوجيات في إدارة الحكم، ونجَح كل الأيديولوجيين في ظلم العِباد، وتدمير المجتمعات التي سيطروا عليها.

36

الأيديولوجية والأيديولوجي

إن مَن يؤمن بفلسفة أيديولوجية يجدُ نفسَه عادة مُضطراً للخضوع لمعاييرَ حياتية صارمة، تحكم سلوكاتهِ وتتحكم في قِيمه ومواقفه ونظرته لنفسه ولغيره من الناس. وهذا يجعله يتحولُ من حيث لا يدري إلى عبدٍ لتلك الأيديولوجية، تابعٍ للمهيمنين عليها من قادة سياسيين ومثقفين وتائهين يبحثون عن هُوية وقضية، أي عَميل مخلص لِما تجسده الأيديولوجية من أفكار، وما توحي به من مواقفَ مصدرُها قيادات أيديولوجية. ولمّا كان من طبع العملاء أن ينقلبوا من خِدمة سيدٍ إلى خدمة سيدٍ آخر، فإنه من الصعب على عميل أن يُخلص لسيد أو زَعيم أو قضيةٍ فترةً طويلة من الزمن. فالإيمان الأعمى، والتبعية لأشخاص لا تزيد كثيراً على كونها محطات يتوقف عندها ومعها تفكيرُ التابع، ريثما يصل قطار جديد يَحمل فكرة جديدة تكون أكثرَ جاذبية وفائدة. فكل أيديولوجية، بقطع النظر عن طبيعتها وأهدافها، هي صورٌ لأحلام زاهية معلقة بحبالِ وَهْمٍ تُغري الإنسان على الإيمان بها والتبعية لها، وربط مصيره بمصيرها، وبالتالي اتخاذ مواقف تَحرمه من التفكير الواعي. وحين يكتشف التابع حقيقة أمره، وأمرَ ما يؤمن به من أفكارٍ ومن يتبعهم من قادة، فإنه يجدُ نفسَه عادة ينقلب على نفسِه وعلى مَن يتبعهم، لكن تعوُّدُه على التبعية والانقياد خلفَ زعاماتٍ مستبدة يدفعه إلى التحول من تبعية لفكرة وزعيم، إلى تبعية لفكرةٍ أخرى وزعيم آخرَ.

وهنا أودُّ التأكيد من جديد أن الأيديولوجية هي **فكرة فلسفية أو عقيدة دينية**، تم تأطيرها وتحويلُها إلى حركةٍ سياسية بهدف الاستيلاء على السلطةِ وإعادة بناء الهياكل الاجتماعية والثقافة الشعبية تبعاً لوحي الفكرة الفلسفية، أو العقيدة المعنية. وهذا يعني أن هناك خلافاً أساسياً بين الفكرة الفلسفية والعقيدة الدينية من ناحية، والأيديولوجية من ناحية ثانية، وذلك على الرغم من أن قادة الأيديولوجيات عامة يدّعون بأنهم يعملون من أجل تطبيق الفكرة التي يؤمنون بها، وتعاليم العقيدة التي ينطلقون منها، ويرجعون إليها. لكن التجربة التاريخية تشير إلى أن كل قائد أيديولوجي خالفَ مبادئ الفكرة الفلسفية أو العقيدة الدينية التي حمَل لواءَها ووهَب نفسَه من أجل الدفاع عنها؛ إذ بدلا من العمل على تحقيق ما تسعى إليه تلك الفكرة أو العقيدة من أهداف، فإن معظم القادة الايديولوجيين اتجهوا إلى تأويل ما تنادي به الفلسفات والعقائد بطرق توخت خدمة مصالحهم وتعزيز مواقعهم الاجتماعية.

ومع أن أغلب المؤمنين بأيديولوجيات دينية وفلسفات شمولية يقضون حياتهم أو معظمها في خدمة مبادئ الأيديولوجية التي يؤمنون بها، ويواظبون على رفع شعاراتها والدفاع عن مقولاتها والترويجِ لها، إلا أن بعض الأيديولوجيـين التابعين يتـنقلون بين أيديولوجية وأخرى، إما بسبب جاذبية الزعيم الذي يقودها، أو سعياً لتحقيق مصالح ذاتية على حسابها. مع ذلك، هناك نسبة لا بأس بها من الأيديولوجيـين تـنقلب بسرعة مذهلة من الشيء إلى نقيضه... من الإيمان بالله إلى الإلحاد، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن القومية إلى العنصرية الإثـنية. وبمجرد أن ينقلب التابع، فإنه يُصبح شخصاً مختلفاً تماماً عما كان عليه سابقاً، من الصعب أن يعرفه صديق، ومن الأصعب أن يتعرف عليه زميل، ومن المستحيل أن يُخلص لفكرة مهما كانت إنسانية؛ إذ يصبح دافعه الأول والأخير هو تحقيقَ مصالحه الخاصة على حسات غيره من الناس والأفكار.

إن انقلاب شخص من التبعية لزعيم معيَّن والإيمان بفلسفة معينة، إلى التبعية لزعيم آخرَ والإيمان بفلسفة مخالفة أخرى، يجعل الشخص المعنيَّ سهلَ القيادة، رخيصَ الثمن من الناحية العملية، وأقل صدقاً وأمانة من الناحية العقائدية، وأكثر خطورة على عقول عامة الناس ومشاعرهم من أيّ حاكم ظالم مستبدّ.

وهذا يعني ببساطة أن كل أيديولوجية تحمل في داخلها روحاً شِرّيرة وبذورَ فساد وتطرف ما يجعلها تهدد كيان كل مجتمع تُهيمن عليه؛ إذ فيما تـتجه إلى العمل بشكل مُمَنْهَج على تدمير ثقافةِ المجتمع المعنيّ وإحلال ثقافة جديدة تـتـنافى غالباً مع العقل وروح الزمن محلها، تسلم أمرَها لقيادات إما ضالة أو موتورة، لا تقف عند حدٍّ قبل تحقيق السيطرة الكاملة على المجتمع والهيمنة على عقول عامة الناس. كما أن كل أيديولوجي، حتى لو آمن بمقولات أيديولوجيته وأخلص لها، هو شخصٌ تابع متقلب الأهواء والولاء، لا يجوز ائتمانه على قيادة مجتمع أو تجمُّع من البشر. ويعود السبب الرئيسي في ذلك لكون الأيديولوجي إنساناً مدفوعاً بعاطفة ضعيفة الصلة بالعقل والمنطق، يَسير تبعاً لتعليماتِ عقل مغلق معصوم عن الخطأ، تم إغلاقه ومصادرة قُدرته على التفكير من قِبل الأيديولوجية التي يؤمن بها ويتبع قادتها.

ويشير التاريخ بوضوح بالغ إلى أن كل الأيديولوجيات التي حكمت شعوباً، وأقامت إمبراطوريات على مدى العصور كان الفشل والإخفاقُ حليفَها. ومع أن من طبيعة كل فكرة فلسفية شمولية أن تـنجح في تجميع أعدادٍ كبيرة من الناس حولها في بادئ الأمر، وإقناعهم بمنطقها ووُعودها الزاهية، إلا أن الزمن والممارسة تـتكفل بالقضاء على إمكانات كل فكر أيديولوجي وقدرات كل قائد أيديولوجي. ويعود السبب في هذا الأمر إلى جُمود الفكر الأيديولوجي بوجهٍ عام، وذلك بسبب إيمانه بحتميات تاريخية وغيـبـية لم تحدث في الماضي، وليس بالإمكان حدوثُها في المستقبل. فالمسيحية مثلاً نجحت في بناء إمبراطورية عظيمة في

بادئ الأمر في ظلِّ قيادةٍ رومانية، لكن قيام حُكام تلك الإمبراطورية بحِرمان الناس من الحرية جعَل الإمبراطورية الرومانية تعجز عن مواصلة التقدم، الأمر الذي تسبَّب في دخولها مرحلة التراجع والانهيار. ومع أن العربَ في ظل الإسلام نجحُوا في إقامة إمبراطورية عظيمة كذلك، إلا أن أدلجة الإسلام جعَل تلك الإمبراطورية تتراجع تدريجيا وتنهار.

من ناحية ثانية، نجحت الماركسية في بناء إمبراطورية ملكت ثاني أكبر قوةٍ عسكرية وتكنولوجية في العالم، لكنها، بسبب جمود الفكر الماركسي نفسه وغياب الحرية، تراجعت وانهارت أمام الرأسمالية. إن كلَّ الحتميات التي تقوم عليها الفلسفاتُ الشمولية، وكلَّ المعجزات التي تدَّعيها العقائد الدينية لا يمكنُ التأكد من حُدوثها عمليا، أو إثبات إمكانية حدوثها عِلمياً، ما يجعلها تفقد الجزء الأكبر من بريقها وقدرتها على تجميع الناس من حولها في المدى البعيد.

إن أدلجة الدين وغيره من فلسفات اجتماعية شمولية يعني تحويلَ الفكرة الدينية، أو الفلسفة المعنية إلى حركة سياسية تسعى إلى الاستيلاء على السلطة في المجتمع الذي تهيمن عليه. فالإسلام السياسي مثلا لا يَسعى إلى هِداية البشر، وإنما يسعى إلى الاستيلاء على السُّلطة والهيمنة على البشر، وحكمهم بالسيف وليس بالعقل. وفي الواقع، قام عقل السلاح منذ بدء الثورات العربية بأخذ مكانة سلاح العقل في حياة كل المجتمعات التي هيمنت عليها ايديولوجية دينية أو دنيوية علمانية. وفي ضوء تحول الرأسمالية إلى نظام يقوم على حرية الأسواق، ونجاح رجاله في تسخير العَملية الديمقراطية لخدمة أهدافهم، فإن الرأسمالية والديمقراطية تحولتا إلى أيديولوجية شمولية تُهيمن على الاقتصاد والسياسة والإعلام. نتيجة لذلك أصبح النظام الأيديولوجي هذا نظاماً ظالماً يقوم باستغلال الفقراء والعُمَّال والضعفاء والأقليات، وتقليص احتمالات نجاح هؤلاء في الحصول على حقوقهم وتسلُّق السُّلم الاجتماعي، وحرمان المفكرين والمثقفين والعلماء الملتزمين بالمصلحة العامة من حرية الرأي والنشر. ولمّا كان من الصعب أن يعيش نظامٌ ظالم طويلاً، فإن النظام الأمريكي دخل، بشقَّيْهِ الاقتصادي والسياسي، مرحلة التراجع والتدهور.

37

إصلاح الثقافة وثقافة الإصلاح

تعتبر الثقافة أكثر الموضوعات أهمية وأولية في علاج العديد من القضايا التي ترتبط بالتنمية الوطنية، بمن فيها خفض معدلات الفقر والجهل ومحاربة التطرف، وبناء علاقات بين الناس تـقوم على التسامُح والتآلف والاحترام المتبادل. وقد ظهرت النظريات المتعلقة بتفسير دور الثقافة في حياة المجتمع ومدى أهميتها في توجيه حركة التطورالمجتمعية منذ دخول الغرب عصرَ الصناعة، حيث قامت تلك النظرياتُ بتحليل المكونات الثقافية وتحديد إمكانات تطورها، وكيفية تطويرها لتؤدي دوراً أكثر إيجابية في الحياة المجتمعية. ولقد كان عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) أول المفكرين الذين قالوا إن بإمكان القيم الثقافية تشجيعَ الناس على العمل والكسب المادي، وبالتالي الإسهام في رفعِ إنتاجية العامل وتحقيق التقدم. ومع نهوض دول آسيوية عدة واستمرار الدول العربية والإسلامية عامة في حالةِ تخلف، فإن بعض المؤرخين والمفكرين الغربيين من أمثال (فرانسيس فوكوياما) و(ديفيد لانديس) و(صامويل هـنـتـنجـتون) كتبوا نظريات تقول إن بعض الثقافات غير قادرة بطبيعة تكوينها على تحقيق التنمية والتقدم، مثل الثقافة العربية الإسلامية التي تبدو عاجزة عن التطور بسبب تقاليدها الجامدة، ومعتقداتها الدينية الثابتة.

وفي ضوء تزايدِ عمليات الإرهاب، وكون معظم مرتكبيها من المسلمين المؤمنين بصوابِ أعمالهم، فإن الغرب اتجه إلى نقد الثقافة العربية والإسلامية، واتهام المؤسسات الدينية التعليمية بتشجيع التطرف وخلْقِ البيئة المناسبة لنموّ التيارات الفكرية المتطرفة، وترعرع الحركات السياسية التي تعادي الآخر، وترفض التعايش معه بسلام. ولهذا طرحت أمريكا فكرة نشر الديمقراطية في العالمين العربي والإسلامي، وطرحت أوروبا فكرة حوار الثقافات، وذلك كوسيلة لتطوير الثقافة العربية والإسلامية لتصبح أكثر تقبلاً للآخر، وقدرة على تحقيق التقدم بشقَّيْهِ المادي والمعنوي، الاقـتصادي والسياسي، والاجتماعي والثقافي والعلمي. إلا أن الطرح الغربي الداعي لتطوير الثقافة العربية جاء في ظلِّ ظاهرة العَوْلمة التي تعمل بشكل مباشرٍ وغير مباشر على تفتيت كافة الثقافات الوطنية وطَمْس معالمها التراثية، وصَهْرها في بَوْتقة ثقافية عالمية تضعف كل المكونات الثقافية التقليدية والهُويات الوطنية وخصوصياتها. ولقد تسبب هذا في جعل الطرح الأمريكي والأوروبي عامة يبدو كأنه استجابة لمسيرةِ العولمة، ومن أجل مساعدتها على تحقيق أهدافها بالسُّرعة الممكنة.

في المقابل، قامت أغلبية الدول العربية والإسلامية برفض مشروع أمريكا الداعي إلى دَمقرَطتها، وقبول فكرة حوار الثقافات الأوروبية. من ناحية ثانية، قام مثقفو العالمين العربي والإسلامي بنقد الموقف الغربي بشكل عام، واتهام أمريكا بشكل خاص بمحاولة التشكيك في عَقلانية الشعوب المنتمية للثقافة العربية والإسلامية، والعمل على تمزيق النسيج الثقافي لتلك الشعوب وطمْس هُوياتها الوطنية. في ضوء ذلك، اتجه أغلب المثقفين التقليديين من العرب إلى المطالبة بحِماية الثقافة العربية، والدفاع عنها في وجهِ الحملة الغربية، والدعوة في الوقت ذاته إلى رفض العولمة ومشاريع الإصلاح الاقتصادية والسياسية التي دأبت الإدارة الأمريكية على الترويج لها، ومحاولة فرضها على العديد من دول العالم الثالث. ومع وَجَاهة رفضِ المثقفين العرب محاولات التدخل الغربية هذه، إلا أن رفض الفكرة الديمقراطية والإصلاح السياسي باسم حماية الدين والدفاع عن التراث جاء منسجماً مع مواقفِ نُظم الحكم العربية التي دأبت على ممارسة الكبْت والاستبداد والاستهانة بالشعوب ومصادرة إرادتها. إذ فيما تحاول نظم الحكم العربية جاهدة الحفاظَ على الأمر الواقع والحَيلولة دون حدوث تغيرات سياسية وفكرية من شأنها إضعاف قبضتها على الحكم، تقوم باستغلال ثروات البلاد ومصادرة مواردها المالية، وبالتالي إضعاف احتمالات حُدوث نهضة تنتشل العرب من براثن التخلف والفقر والتطرف والتَّبعية.

إن التطرف الفكري والأيديولوجي الذي يسود العديدَ من الدول العربية اليوم كان نتيجة طبيعية لغياب حركات الإصلاح السياسي في الماضي، وإهمال الثقافة واللغة ونُظم التعليم طويلاً، وتحالف الكثير من المثقفين مع السلطة. وإذا كان الإصلاح مطلوباً في الماضي، وأن غيابه قد تسبَّب في تصعيدَ التطرف وتكريسَ التخلف بأبعاده المتعددة، فإن الإصلاح السياسي والثقافي يعدّ اليوم أكثر إلحاحاً من أيّ وقتٍ مضَى، لأن الزمن يَمضي بسرعةٍ، بينما تزدادُ سعة الفَجْوة الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية التي تفصل العربَ عن الغرب يوماً بعد يوم. ولما كانت ثقافة الحُكم هي جزءاً من ثقافة الشعب، وأن الموقف من العمل والوقت والإنتاج والحياة والبحث العلمي هو الآخر جزء من الثقافة نفسها، فإن إصلاح الثقافة أصبح المدخلَ الحقيقي لإصلاح أنظمة الحُكم، وتنمية الاقتصاد، وتشييد مؤسسات البحث العِلمي والتطوير التكنولوجي، واجتثاث جُذور التطرف الديني وغير الدبني من حياةِ المجتمع العربي بطرقٍ سلمية.

تشكل الثقافة، بما في ذلك القيمُ والعاداتُ والتقاليد والمواقفُ واللغة وطرق التفكير وما ينبثق عنها من علاقات اجتماعية، أولَ الأطر المجتمعية التي طورها الانسان في حياته، وحاول من خلالها التعامل مع بيئته بعناصرها الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية المختلفة. وفي الواقع، تعدّ الثقافة القناة الأهمَّ التي يستخدمها العقل للتعامل مع الواقع الذي يعيش فيه، والوسيلة التي يقوم من خلالها بتطوير نظم الحياة

الاجتماعية، وتربية الأجيال المستقبلية، كما أنها أداة يستخدمها الواقع الحياتي نفسُه كي ينقل للعقل صورةً حية لِما يعيشه من مشكلات وأوهام وطموحات. وهذا يعني أنه ليس بالإمكان معالجة أيّ قضية من قضايا المجتمع الكثيرة بمَعْزل عن البيئة الثقافية الاجتماعية، ومن دون المرور في قنواتها الأساسية التي تشمَل اللغة والمؤسساتِ التقليديةَ والتعليمية والدينية.

كان التحدي الأهمُّ الذي واجه الانسان الأول في حياته هو التعاملَ بكفاءة مع بيئته الطبيعية ذات المزاج المتقلب، والعطاء المحدود. وقد توجّهَ ذلك الإنسان بسبب ضعفه وبدائية أدواته التكنولوجية وانعدام معارفه العلمية إلى التكيف مع أوضاع بيئته الطبيعية، وذلك من خلال الترحال والتنقل المستمر بحثاً عن ثمارٍ يقطفها، وحيوانات يصطادها، والعيش في كهوفٍ معتمة هرباً من تقلبات المُناخ والحيوانات المفترسة.

لكن الإنسان الأول اكتشف حالَ بدء صراعه مع بيئته الطبيعية أنه كان عليه أن يتعامل أيضاً مع غيره من الناس بشكل يقلل مخاطرَ الاحتكاك بهم، ويزيد متعة الانـتماء إليهم والتفاعل معهم. وهذا أدى إلى ميلاد اللغات وتبلور الثقافات ببطء على شكل عاداتٍ وتقاليدَ وأعراف ومواقفَ وقيم وعلاقات اجتماعية أسهمت البيئة الطبيعية والجغرافيا وأنماط الإنتاج والتحديات الخارجية في تشكيلها. ومع تأمين الغذاء واستقرار الحياة الاجتماعية في عصر الزراعة، أصبح بإمكان الإنسان الزراعي توجيهَ جزء متزايد من وقـته للتفكير في معضلات الحياة، والتأمل في الكون، ما قاده إلى اكتشاف الدين وتطويره. وفي ضوء قدسية الأديان، فإن المعتقدات والقيمَ الجديدة التي حملتها العقائد الدينية قامت بإعادة تشكيل جانبٍ مهمّ من جوانب حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية، حيث أصبحتْ المعتقدات والتعليمات الدينية تشكلُ جوهر الثقافة وأهمَّ مكوناتها، ونظاماً اجتماعياً أسهم بفاعلية في تـنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس.

إن ارتباط الثقافة بالدين من ناحية، وقيام الديانات عامة بدعوة النـاس إلـى الإيمـان بعقائـد مقدسـة لا تـتغير ولا تـتبدل من ناحية ثانية، جعَل من الصعب تطوير الثقافات الشعبية دون المَساس بالمفـاهيم الدينيـة السائدة. وقد ترتَّب على ذلك أن أصبح من المتعذر تطوير القِيم الثقافية والعلاقات الاجتماعيـة دون تطـوير القيم الدينية ذاتها وتغيير طرق تفكير الناس. ولما كانت أغلبية المؤمنين من المسلمين تعتقد خطأً أن الدعوة إلى تطوير القيم والتقاليد الثقافية هي دعوةٌ للمساس ببعض المبادئ الدينية، فإن جمـود الثقافـة أصـبح أمـراً طبيعياً، فيما أصبح التخلف الثقافي والفكري والعلمي أمراً حتمياً. وفي ضـوء اسـتمرار التحـولات الثقافيـة والاجتماعية العولمية، لم تُعَدَّ الثقافة العربية صالحةً للتعامل مع المعرفـة العصـرية بواقعيـة وإيجابيـة، ولا السماح للعقل بالتواصل مع الواقع بحِيادية وعلمية؛ كما أصبح من الصعب تفاعل أبناء الـوطن الواحـد مـع

بعضهم بعضا بشكل خلاق، والتعايش بسلام على أسس من التسامح وتبادل المصالح، وقبول البعض بحق الاختلاف في الرأي والفكر.

إن إصلاح الثقافة العربية يتطلب تبني ثقافة الإصلاح، أي الاعتراف بأن الثقافة العربية بحاجةٍ ماسة لتطوير جَذري، ينقلها من حالة الجمود والتطرف الراهنة إلى حالة دينامية تتصف بديمومة التطور والتحول. وهذا يعني أن بداية الإصلاح تبدأ بالاعتراف بالحاجة إلى الإصلاح **أولاً**، والانتقال **ثانياً** من مستوى الذهن إلى مستوى الواقع من خلال البحث عن سُبل الإصلاح وأهدافه وأدواته، والانتقال **ثالثاً** إلى مستوى الفعل برسم برامج إصلاحية تستهدف تطويرَ الثقافة العربية، وما تشمله من عناصرَ بطريقة تجعلها قادرة على التعايش مع عصرها. فهل باستطاعتنا إصلاح قيمنا الثقافية دون المساس بمعتقداتنا الدينية؟ بكل تأكيد إذا تمكنا من تحرير العقل واستخدامه بكفاءة وأمانة.

إن إصلاح الثقافة هو المدخل لإصلاح المجتمع وتوعية الإنسان وصلاح العقل والأمة والواقع؛ كما أن إصلاح الثقافة هو الأداة لتحقيق نهضة مجتمعية تُمكِّن العرب من العودة إلى التاريخ الحضاري الذي خرجوا منه بالخروج من الأندلس قبل أكثر من خمسة قرون. ومع أن عمليات إصلاح الثقافات هي عمليات معقدة، وذات متطلبات عديدة تشارك فيها قوى اجتماعية ذات أهداف غير متوافقة وأحياناً متناقضة، إلا أنها عملية لا بد منها إذا أرادت النخب المهيمنة على السياسة والاقتصاد والفكر الديني أن تحافظ على ديمومة المجتمع الذي تعيش فيه وتستمد منه أسباب وجودها، وتعزيز ما تتمتع به من مواقع اجتماعية وامتيازات. أما تلك القوى فهي الدولة ورجالها، ونظام التعليم بمختلف مراحله، والمؤسسة الدينية، ومؤسسات الإعلام الوطنية.

وضمن خطة إصلاح شاملة، يكون على الدولة أن تسُن القوانينَ والتشريعات القادرة على القضاء على كلِّ أشكال الفساد، وتطبيق القانون على مختلف أفراد المجتمع بالتساوي، وتطوير نظام التعليم والبحث العلمي، والقيام بمأسسة كل الجمعيات والتنظيمات والدوائر الحكومية، وتوجيه المؤسسات الإعلاماتية الرسمية للترويج للقِيم والتقاليد التي تقرُّها خطة إصلاح الثقافة، والنهي عن العادات والتقاليد التي ترى خطة الإصلاح ضرورة التخلص منها، وتوجيه رجال الدين لحثّ الناس على التمسك بالقيم الإيجابية من العمل والوقت والحياة وغيرهم من الناس، والابتعاد عن القيم السلبية التي تدعو إلى التواكل والكسَل وعدم احترام المواعيد والإقصاء. أما نظام التعليم فعليه أن يطور كلَّ المناهج الدراسية بشكل يجعل القيم السليمة والمواقفَ الإيجابية من الوقت والعمل والوطن هي أساسَ السلوكات قبل وبعد التخرج

من المدرسة والجامعة، والمنطلق الذي يَحكم عمليات التفكير في أمورِ الحياة وإشكالية النهضة المجتمعية، وذلك إضافة إلى إحلال أسلوب التفكير النقدي محل أسلوب النقل والحفظ التقليدي.

أما المؤسسات الإعلامانية، فإنَّ دورَها أصبح اليوم حاسماً في إنجاح خطط الإصلاح وإفشالها على السواء، وذلك لأنه لم يعُد بإمكان إنسان أن يعيش حياتَه من دون أن يتعرَّض لرسالة تلك المؤسسات لساعات يومياً، خاصة لأنَّ تلك المؤسسات لا تخاطبُ الرجلَ الواعي والمرأةَ الناضجة فحسب، وإنما تخاطب أساساً الجَهَلة والبسطاء من الناس، والعاطلين من العمل من الشباب، والمراهقين والأطفال. وفي مجتمعات عربية تقليدية تؤمن أغلبية الناس فيها بصدق رجال الدين ورسالة المسجد، فإن دور رجال الدين لا يقلُّ أهمية عن دور وسائل الإعلام الجماهيرية. لذلك كان على هؤلاء أن يركِّزوا على منطلقات الفكر الديني وروح الإسلام وقِيمه السمحة، وما تحث عليه تلك القيم من إخلاص في العمل، وطلب العلم والمعرفة، والمساواة بين الناس، والتسامح مع أتباع الديانات الأخرى، والتعاطف مع الفقراء والمحتاجين، والابتعاد عن الغِش والاستعلاء والتطرف واقصاء من نختلف معهم في الرأي أو الدين، والدعوة إلى الحرية والعدل، وتلك قِيم موجودة في القرآن الكريم، وفي التراث الديني.

إن نظم الحُكم التي تعجز عن إدراك أهمية إصلاح الثقافة، وتتجه نحو إهمال هذه القضية أو تأجيل البتّ فيها، لن تحقق كثيراً ولن تعمِّر طويلاً، لأن من شأن السكوت أن يتسبب في تكريس المشاكل وتعميق المظالم وتأجيج العواطف. إن الفقر والحاجة وسيادة ثقافة التخلف والاستبداد والتطرف الشائعة في بلادِ العرب تقوم اليوم بقيادة الفقراء والمظلومين والضالّين إلى التطرف والعنف، والانقسام إلى تيارين يعملان على تقويض دعائم المجتمع العربي وتدميره. إذ فيما يسير التيار الأول نحو تبني منهج تطرف دنيوي عبثي، يسير التيار الثاني نحو تبني منهج تطرف ديني أيديولوجي أكثر عبثية. وكما أثبتت تجربة الربيع العربي، ينطلق التيار الأول من بُؤس الحياة وانعدام الحرية وفُقدان الأمل، ويتحول تدريجياً إلى ثورةِ غضَب تنتهي باللجوء إلى العنف والتدمير، لأنه ليس لدى هذا التيار سِوى هدفٍ واحد هو الانتقام من الدولة ورجالها، وليس لديه برنامج إصلاح سوى تدمير كلّ شيءٍ له علاقة بتلك الدولة.

أما التيار الثاني فيَنطلق من إيمان راسخ يقوم على وعيٍ مزيَّف بأن القيم الثقافية والسلوكات السائدة في المجتمع تخالف تعاليم الدين، طبعاً كما يفهمه المتطرفون أنفسُهم. وهذا وعيٌ يتطور بسرعة إلى عمل سياسي عسكري سرّي يستهدف الاستيلاءَ على السلطة بالقوة وتطبيق رؤيته على الأرض. وهذا يقودُه إلى استخدام أقسَى درجات العنف ضدَّ مَن يخالفه الرأي، ما يجعله يرتكب الجرائم والمجازر بحق الرجال والنساء والأطفال والعجَزة من المسلمين وغير المسلمين، ويقوم بهدم ما هو قائم من مؤسسات حديثة

وتراث بشكل مُمَنْهج، والعودة بالمجتمع إلى عصور الظلام الحالكة. التطرف الدنيوي العبثي يقوده عقلٌ جاهل تنازل عن عقلانيته تماماً، ويوجهه ضمير غائب؛ فيما يقود عمليات التطرف الديني الأيديولوجي عقل عاجز عن التفكير، وتابع لقيادات ضالة مُضللة تنازلت عما كان لديها من ضمائر ومشاعرَ إنسانية، وتبنّت شهوة السلطة عقيدةً جديدة لا تَحيد عنها، ولا تقبل لها بديلاً.

38

مراحل الانتقال الحضارية

حين تـنـتـقل الشعوب والأمم من حضارةٍ لأخرى، فإن ثقافات تلك الشعوب والأمم تدخُل فترة صعبةً من التحول والتغير تـتصف بالتخبط والضياع، لكن كل ثقافة تـتبلور في ثوب جديد ومحتوى مختلف كثيراً بعد أن يستكمل المجتمع المعنيُّ فترة الانتقال، ويدخل الحضارة الجديدة. وفي الواقع، يشكِّل الانتقال الحضاري نقلة نوعية في مكونات المجتمع تشمل ظهور مجتمع جديد واقـتصاد جديد وثقافة جديدة، ما يقطع صلة المجتمع بماضيه، وإن بقي على اتصال بجزء من تركته الثقافية والتاريخية. وفيما يقوم العامل الاقتصادي بالدور الرئيسِي في توجيه مسيرة فترات الانتقال الحضارية، تقومُ الثقافات بالدور الرئيسِي في توجيه مسيرة فترات الاستقرار الحضارية.

مرت المجتمعات الإنسانية خلال عُمرها الطويل على هذه الأرض بثلاثِ مراحلَ حضارية بارزة، كان **أولها** مرحلة القبلية التي ظهرت قبل ثلاثين ألف سنة تقريباً، واستمرت نحو عشرين ألف سنة قبل ظهور عصر الزراعة. ومع أن المجتمع القبلي اعتمد أساساً على صَيد الحيوانات وأكْل لحومها، وجمْع الفواكه والحبوب والخضراوات من الطبيعة والعيش عليها، إلا أنه استطاع قبل ألف سنة من اكتشاف الزراعة أن يدجِّن بعض الطيور والحيوانات، وينتقل إلى رعي المواشي واستخدام الحيوانات المدجَّنة في نشاطات عدة، مثل شن الحروب والتـنقل، والاستفادة من لحوم وجلودٍ وشعرٍ وعظام بعضها لأغراض مختلفة. ومع ظهور حضارة الزراعة قبل نحو عشَرة آلاف سنة، تبلور المجتمع الزراعي الذي اضطرته طبيعة مِهنة الزراعة ونمط حياتها إلى الاستقرار، ما جعله يستحوذ على اقـتصاد جديد قام أساساً على فِلاحة الأرض والعيش على منتجاتها، وثقافة جديدة اختلفت كل الاختلاف عن الثقافة القبلية التي سبقـتها.

قبل نحو 250 سنة، أي في النصف الثاني من القرن الثامنَ عشر، ظهَر عصرُ الصناعة في بريطانيا أولاً، وانتقل منها إلى دول أوروبا الغربية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية وكندا وأستراليا ونيوزيلندا. ومع ظهور عصر الصناعة هذا، ظهر المجتمع الصناعي الذي يَعتمد أساساً على الآلة في تصنيع منـتجات معدنية وكيماوية وغذائية وقطنية وغير ذلك، والعيش على الأموال التي تدرّها عمليات التصنيع والعمل في المصانع، وتسويق المنتجات الصناعية وتصديرها. ولمّا كان لكل مجتمع يعيش في مرحلةٍ حضارية ثقافتُه

المختلفة نوعاً ما عن ثقافة مجتمع المرحلة الحضارية السابقة، واقتصاده المختلف نوعاً وكمّاً عن اقتصاد المرحلة السابقة، فإن المجتمع الصناعي اختلف من حيثُ الهياكلُ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما جعل مكوناته تختلف كلياً عن مجتمع وثقافة واقتصاد وهياكل المجتمعات الزراعية والقبلية السابقة. واليوم، يمر العالم الأكثر تقدما من النواحي العلمية والتكنولوجية بمرحلة انتقال حضارية جديدة تقوم بنقل المجتمع الصناعي إلى مجتمع معرفي، ذي بُنية اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية مختلفة عن كلِّ ما سبَقَها من بُنى مشابهة.

استغرقت مرحلة الانتقال الأولى من القبلية إلى الزراعة نحو 3000 سنة. وبسبب طول هذه الفترة، فإن نحو 80% من المجتمعات القبلية تمكَّنت من الانتقال إلى الزراعة مع بدء مرحلة الانتقال الحضارية التالية إلى عصر الصناعة. أما مرحلة الانتقال من الزراعة إلى الصناعة فقد بدأت في نحو منتصف القرن الخامسَ عشر، وانتهت بعد 300 سنة تقريباً، مما جعل فترة الانتقال الحضارية من الزراعة إلى الصناعة تستغرق نحو عُشْر فترة الانتقال الأولى. وبسبب قِصَر هذه الفترة نسبياً مقارنة بالفترة السابقةِ، فإنَّ المجتمعات التي انتقلت من الزراعة إلى الصناعة كانت تشكِّل نحوَ 25% فقط من سكان العالم حين بدأت فترة الانتقال التالية إلى عصر المعرفة. بناء على هذا، من المتوقع أن تستغرق فترة الانتقال الحالية من الصناعة إلى المعرفة نحو 30 سنة فقط. ولمّا كانت هذه الفترة قد بدأت في نحو منتصف التسعينات من القرن العشرين، فإنه من المتوقع أن تكتمل في حوالي سنة 2025.

كانت فلاحة الأرض هي أداة التحول الحضارية التي نقلت المجتمعَ القبلي إلى عصر الزراعة، فيما كانت عمليات التصنيع هي أداة التحول الحضارية التي نقلت المجتمع الزراعي إلى عصر الصناعة. أما عمليات تصنيع وتطوير وتسويق المعلومات والأفكار، أي فروع المعرفة المتعددة، فهي أداة التحول الحضارية الجديدة التي تعمل اليوم على نقل المجتمع الصناعي إلى عصر المعرفة. ويشير تاريخ التطور الحضاري إلى أنّ تغيُّرَ نمط الإنتاج الاقتصادي هو العامل المسؤول أساساً عن نقل المجتمعات من حضارة لأخرى. لكن حين يستقر المجتمع الجديد ويستعيد توازنه، فإن العادات والتقاليدَ والقيم الثقافية تغدو أهم القوى التي تؤثر في مسيرته الحضارية. وتؤثر الثقافة في مسيرة المجتمع من خلال دفعه نحو الأمام وتحقيق المزيد من الإنجازات المادية والثقافية، أو دفعه نحو الوراء، وإهمال ما حققته الأجيال السابقة والشعوب الآخرى من إنجازات. كما أن من الممكن أن تتسبّب الثقافة في جمودَ المجتمع وإجباره على العيش في مكانه خارج زمنه، يجترّ ماضيه من دون الالتفات لِما تعيشه المجتمعات المجاورة والمنافسة من تقدم في مجالات العلوم والتكنولوجيا وأنماط الإنتاج الاقتصادية، وطرق التفكير العلمية. وهذا يعني أن

تأثير الثقافة في الاقـتصاد والمجتمع والعلاقات الإنسانية يكون كبيراً خلال فترات الاستقرار الحضارية، وأن تأثير الاقـتصاد في الثقافة والمجتمع والعلاقات الإنسانية يكون هو الأهمَّ خلال فترات الانتقال الحضارية، ما يجعل العلاقة بين الثقافة والاقتصاد تـتصف بدينامية التأثير المتبادل.

39

لعنة التاريخ

الأيديولوجية عقيدة دينية أو فلسفة شمولية تم تسييسها بهدف إقامة مجتمعٍ جديد على أنقاض مجتمع قائم، وذلك بناء على تصورٍ جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ، أو بناءً على تصور لمجتمع كان وزَالَ منذ زمن بعيد. وهذا يعني أن الأيديولوجية تستهدف تغييرَ ظروف الحياة وطرق الحياة بالنسبة للشعب المعنيّ بشكل يقطع صلته بالماضي القريب، وربما بالعالم المحيط به أيضاً. ولما كان من شبه المستحيل نجاح إيديولوجية في تحقيق هدف كهذا في ظل الظروف الراهنة التي تتصف بعَوْلَمة الاقتصاد والثقافة والمعرفة وشيوع الاعتماد المتبادل بين الشعوب، فإن كل أيديولوجية محكوم عليها بالفشل. وفي الواقع، لم تنجح أيديولوجية في الماضي القريب أو البعيد في تحقيق أهدافها التي وعدت الشعوبَ بها، ما جعَل الإخفاق يدفعها إلى كبت الحريات العامة، والتنكيل بالمعارضة وإقصائها، والتسبب في تخلف الشعوب التي حكمتها، وتوريطها أحياناً في حروبٍ دامية مكلفة من النواحي البشرية والمادية والإنسانية. ويمكن القول إن الأيديولوجيات كانت مسؤولة مسؤولية مباشرة عن موت ما لا يقل عن 90% من مئات الملايين من البشر الذين قُتلوا في حروبٍ دولية وأهلية وطائفية ودينية، وصراعات إثنية وسياسية داخلية وإقليمية عَبر التاريخ.

يمكن تصنيف الأيديولوجيات إلى **ثلاث فئات رئيسة: أيديولوجيات** اجتماعية ثقافية، أي دينية، **أيديولوجيات** اجتماعية سياسية، أي قومية، **أيديولوجيات** اجتماعية اقتصادية، أي اشتراكية ورأسمالية مادية. وتشير سجلات التاريخ إلى أن المسيحية المُأدلجة أخفقتْ في ظل الإمبراطورية الرومانية، وأن الإسلام المُؤَدْلَج أخفق هو الآخر في ظل الإمبراطوريتين العربية والعثمانية، وأن القومية أخفقتْ في ظل النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، والبعثية في العراق، كما أخفقتْ في اليابان وغيرها من البلاد، وأن الأيديولوجية الماركسية فشلت في روسيا والصين وغيرهما من دول شيوعية، وأن الرأسمالية في طريقها إلى الفشل بعد أن تحولت في ظل نظام السوق الحر إلى أيديولوجية، خاصة في أمريكا وبريطانيا. وهذا يعني أن التوجه الأيديولوجي الديني الذي يداعب خيالَ بعض الشعوب العربية، ودولاً إسلامية آسيوية وإفريقية عدة سيكون مصيره الإخفاق، وأن عدم التراجع عنه بالسرعة الممكنة من المؤكد أن يتسبب في ضياع المزيد من المال والوقت والفرص والجهد، ووأدِ الأمل في النفوس، وهذا من شأنه أن يكرِّس حالة

التخلف والفقر الماديّ والعِلمي والتكنولوجي والثقافي والروحي على أرضِ كل الدول ذات التوجهات الايديولوجية.

لو أن رجال الدين حافَظوا على رسالة الدين الأساسية التي تدعو إلى إقامة العدل بين الناس، وعملِ الخير والابتعاد عن الشر، والتعاطف مع الفقراء والمستضعفين في الأرض، لكان بإمكان كل دين أن يقدمَ خدمة أفضلَ للبشر والإنسانية. ولو أن القومية حافظتْ على رسالتها الداعية إلى وحدةِ أفراد كل مجتمع والاعتزاز بأنفسهم وتاريخهم، والتصرف كأحرار متساوين في الحقوق والواجبات، لكان بإمكانها خدمة الإنسان والإنسانية وتحقيق الكثير من الأهداف التنموية والتنويرية. ولو أن الماركسية تمسكت بفحوى رسالتها الأصلية الداعية إلى تصفية الاستعمار ووضع حدٍّ لاستغلال العُمَّال، وتحقيق عدالة اجتماعية ومساواة بين أفراد المجتمع الواحد وبين مختلف الشعوب، لكان بإمكانها تقديمُ خدمة كبيرة للإنسان والإنسانية كذلك. ولو أن الرأسمالية استطاعت أن تحافظ على دورها التقليدي في خلق رأسمال اجتماعي وإنتاجي، والعناية بالعمال وعدم الاعتداء على حقوقهم، والإسهام في تنمية المجتمعات المحلية التي تنشط فيها، لكان بإمكانها أن تستمر في تنمية المجتمعات والثقافات والاقتصادات الوطنية، وأن تتجنب عمليات الاستغلال وتكديس الثروات في أيدي القلة وإفقار عامة الشعوب. لكنّ جنوح كل فلسفة شمولية إلى التحول من فكرة إنسانية إلى أيديولوجية تسعى إلى السيطرة على الحكم، والتوجه نحو التمسك برأي محدد باعتباره حقيقة أزلية، جعَل كل أيديولوجية تتحول إلى حركة عنصرية تلحق الضرر بالإنسان والإنسانية.

وهذا يعني ببساطة أن كل فلسفة شمولية بدأت بفكرة إنسانية نبيلة، لكنها تحولت إلى ايديولوجية ونظام حكم تسبب في قتل الكثير من البشر، وتدمير الكثير من الدول، وتسميم العلاقات الإنسانية، وكبْت بلايين الناس عَبر آلاف السنين، وانتهت بفشل ذريع كان من نتائجه إضاعة الكثير من الفرص، والموارد المالية والبشرية والمواهب الخلاقة. لذلك يمكن القول إن الايديولوجية، وليس الفكرة الإنسانية التي انطلقت منها، هي لعنة التاريخ التي عملت وما تزال تعمل على تدمير الإنسان والحضارة الإنسانية، وقتل روحها التواقة إلى الحرية والعدل والتعايش السلمي بين الشعوب.

40

قطار العمر

ركبتُ قطارَ العمرِ
ولم يكن لي في الركوبِ خَيارْ
سارَ القطارُ ليلَ نهارْ
في الليلِ سار
وفي النهارِ دارْ
وما أن صحوتُ من طفولتي
لأروي لَهفتي
حتى انتهى المشوارْ

ركبتُ موجَ البحرِ
موجٌ ساحرٌ غدارْ
هاجَ البحرُ
ثارَ الموجُ
تحطّمت الأشرعة
وغابت عن ناظري الأقمارْ
غِبتُ عن الوعيِ
صحوت وفي الرأس دُوارْ
فغَدا النهارُ ليلاً
والليلُ نهارْ

أصغيتُ لصوتِ العقلِ

حيّرني وحارْ

خيّرني بين أزمنةٍ كثيرة

بعيدة وقريبة تحيط بها الأسوارْ

زمنٍ يئنُّ من وطأة الماضي

وزمنٍ مسكينٍ يُسايرُ الأحبارْ

وزمنٍ يُعاندُ الزمن

ويصنعُ من عِنادِهِ الأقدارْ

ركبتُ قطارَ الزمنِ

سافرتُ مع الأقدارْ

أفكارٌ تتلاطمُ في رأسي

أحلامٌ تكبرُ في عيني

زرتُ دياراً بعد ديارْ

ملاهيَ، مراقصَ، معابدَ

بيوتاً يَسكنها علماءٌ بؤساءٌ

وحكامٌ نبلاء وأشرارْ

وعدتُ أحملُ حقيبةَ زَمني

وقلادةً من الأوزارْ

غرقتُ في بُحورِ العلمِ

أنقبُ عن مُعجزات الكونِ

حاضناتِ الكواكبِ والأقمارْ

سلالات الطيورِ

ينابيع الشوق والأنهار ْ

وعدتُ سعيداً أحمِلُ كتابا

أعلم الشباب حبَّ المعرفة

تحكيم العقل والضميرِ

وصُنع المستقبل والأقدارْ

طردوني مِن عَمَلي

وأهدوني طربوشَ وَقارْ

سرحتُ مع الفنِ

أحمل عصاً وطبْلاً

ناياً حزيناً ومِزمارْ

أغني للجارِ بعد الجارْ

وغانيةٌ تـتجسسُ على الشارع

تـتوارى خلفَ ستارْ

تـنـتظرُ نزولَ الظلامِ

وعشاقَ الليلِ من الأبرارْ

حملتُ حقيبةَ العمرِ

توجهت نحو المطارْ

هارباً من الكبْتِ والجهلِ

أبحث عن حرية العقلِ

سكينةِ الروحِ وعُذرية الأفكارْ

لا أدري أن المطارَ اختفَى

وأصبحَ حَظيرةَ أبقارْ

جلستُ على دَربِ المآسِي

أتابعُ قُطعانَ المواشي

تسيرُ تائهةً في غابة عارية بلا أشجارْ

أعمارٌ تعيشُ خارج الزمنِ

وأحلامٌ تعيشُ عُمرَ العمرِ انتظارْ

لم يشفعْ لي سفرٌ ولا عِلمٌ

فنّ ولا أشعارْ

وقبل أن ينتهي المشوارْ

خسِرتُ بقايا العمر

في لحظة حبٍّ يائسٍ

على طاولةِ قِمارْ